العـراق الحـديـث

بين الثـوابت والمتـغيّـرات

«الجزء الثانى»

الطبعـــة الأولى

١٤٢٦هـ ــ ٢٠٠٥م



٩ شارع السعادة ـ أبراج عثمان ـ روكسى ـ القاهرة

تليفون وفاكس: ٤٥٠١٢٢٨ ـ ٤٥٠١٢٢٩ ـ ٢٥٦٥٩٣٩

Email: < shoroukintl @ hotmail. com >

< shoroukintl @ yahoo.com >

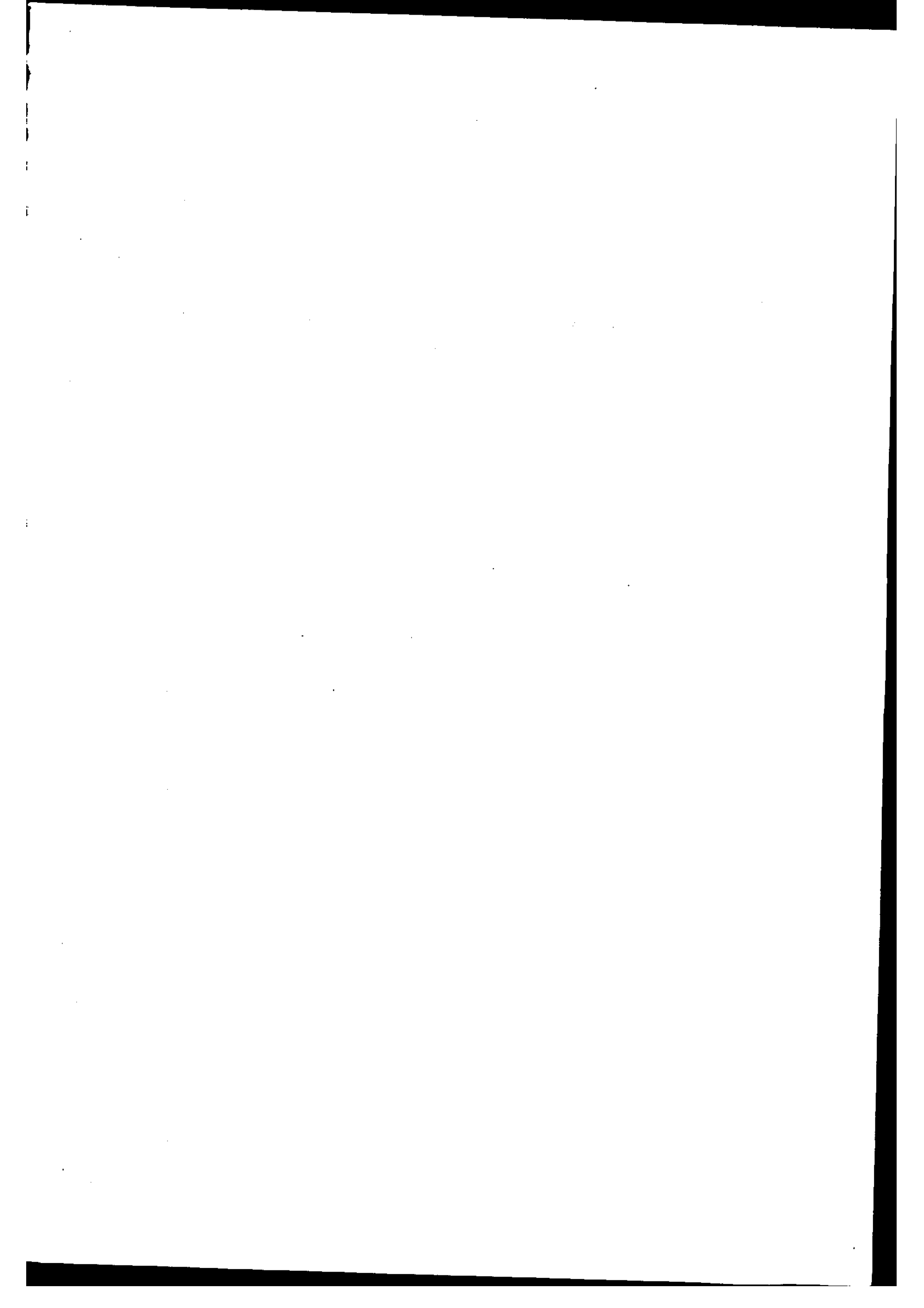
العراق الحديث

بين الثوابت والمتغيّرات

«الجزء الثانى»

د. طه جابر العلوانى





المحتويات

مقـدمـة

في الوقت الذى أتقدم فيه بجزيل الشُكر إلى الأستاذ عادل المعلم على نشره الحلقة الأولى - الخاصَّة ببيان أهم الثوابت العراقيَّة - التى يمكن أن تجتمع عليها كلمة العراقيِّين - يسرُّنى أن أقدم الحلقة الثانية - التى وضعت بين يديها جملة من الأسئلة، وحاولت بعد ذلك الإجابة عنها.

لقد كان محور هذه الحلقة الأساسى هو بيان نقاط الاتصال والانفصال بين «حزب البعث» العراقى و«السنَّة» فى العراق، وقد أثبتت الدراسة بما لا يدع أىّ مجال للشك أن هذه الفرية الكبرى قد روّج لها أعداء العراق فَكذَّبوا الكذْبة وصدَّقوها، وحاولوا أن يخدعوا بها الجاهلين. كما أنّ الدراسة قد بيَّنت مدى رسوخ «الطائفيَّة السياسيَّة» فى عالمنا العربى، وأنَّها مقدّمة - عند أهلها، وهم كثر - على الدين كلّه.

وحاولت الدراسة - فيما حاولته - أن تنبّه بشىء من الحذر إلى أنّ أمريكا لم تسقط فى غزوها العراق «نظام حزب البعث العراقىّ» كلِّه، بل أسقطت الجناح التكريتىّ الصدّامىّ الذى كان يحرص على الظهور بمظهر

المنتمى إلى السنَّة، وأحلّت محله الجناح البعثىّ الآخر الذى يدعى الانتماء إلى الشيعة انتماء طائفيَّة سياسيَّة؛ فالشيعة بمرجعيّاتهم الدينيَّة، والعشائريّة العربيَّة لا يشرفهم أبدًا - وهم أهل النضال والجهاد - أن تكون لهم قيادة تفخر على رءوس الأشهاد بأنّها عميلة لأكثر من ثلاثة عشر جهاز مخابرات دوليًا توسلت بالعمالة لها للوصول إلى السلطة.

أرجو أن يكون فى هذه الدراسة ما يخدم الحقيقة، وما يمكن أن يكون شمعة فى طريق أجيالنا الطالعة.

والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل

* * *

أسئلة الدراسة

هذه الحلقة ستحاول أن تجيب عن الأسئلة التالية التى لم يكن لها نصيب من التناول فى الحلقة الأولى:

إن هذه الدراسة - على وجازتها - تضع نصب عينيها مجموعة من الأسئلة المهمة، وسنحاول تقديم إجابات مقترحة عنها. هذه الإجابات مهما اعتنينا بها، فإنَّها ليست كاملة أو نهائيَّة، ولتكون كذلك لا بد أن تأخذ نصيبًا وافرًا من عناية العرب والعراقيّين، خاصَّة مثقفيهم وذوى الرأى منهم، فالتفكير فيها، وتقليب الرأى والنظر فى جوانبها المختلفة سيعطيها النضج الضرورىّ، الذى نأمل أن يساعد على شىء من توضيح الرؤية، وإنارة البصائر، ولا شك أن أسئلة كثيرة سوف تثيرها هذه الأسئلة، وذلك أمر مفيد ومقصود، فإن بداية الوعى أن نكون قادرين على صياغة أسئلتنا بالدقة اللازمة لإحداث حالة التفكير ثم الوعى. وفى الحلقة الأولى التى كرستها لبيان «الثوابت العراقية» التى يمكن أن تكون موضع اتفاق كان السؤال المحورىُّ الذى أديرت حوله أفكارها هو: ما الثوابت العراقيَّة؟ وهذا السؤال لو أردنا استنباط الأسئلة التى يمكن أن يثيرها لوجدنا فى مقدِّمتها سؤال «الهُوية»، ونحن - وإن لم نجب عنه

بشكل مباشر ـ نثرنا إجابته بشكل لا يخفى بين الثوابت الخمسة التى ذكرت، وكذلك فعلنا فى الإجابة عن سؤال التعدُّديَّة.

وفى هذه الحلقة سنثير مجموعة من الأسئلة لنحاول إدارة البحث حولها، ونحن نعالج علاقة صدام وحزب البعث الصدَّامىّ «بأهل السنة والجماعة» ـ فذلك أكثر إعانة للقارئ على فهم قضايا الدراسة، واستيعاب مسائلها، ومن ثم يتسنى له أن يشاركنا السير فى مسالكها ليخرج من دائرة التلقى المجرَّد إلى دائرة المشاركة الإيجابيَّة، ومن هذه الأسئلة:

١ ـ ما المراد بـ «أهل السنَّة والجماعة»؟ ومتى بدأ استعمال هذا المصطلح ـ تاريخيّا ـ ومتى انتشر وشاع لترثه ثقافتنا المعاصرة؟ وهل يعدُّ ضدّا أو نقيضًا لمصطلح «الشيعة» أو لا يعد نقيضا أو ضدّا له؟

٢ ـ هل هناك أدلة شرعيَّة جاء بها الكتاب والسنة تأمر أو تندب أو تحث على استعمال هذه المصطلحات: ـ السنة ـ الشيعة ـ . . .؟ إن وجدت فما هى؟ وإن لم توجد، فما الذى يجعل الناس يتشبَّثون بمصطلحات وعناوين لا دليل شرعىٌّ معتبر يدل على ضرورة استعمالها، وإيجاد التمايز بين الناس وفقًا لها؟ فلماذا كل هذا، وهى أضيق من مفهوم الإسلام الجامع الشامل؟

٣ ـ حديث افتراق الأمة المسلمة وهلاكها جميعًا إلا الفرقة الناجية، وكفر وصيرورة الفرق الأخرى إلى النار. ما نصيب تلك الأحاديث وما نحا نحوها من الصحة؟ وإلى أى حد يحق للمسلمين التعالى على بعضهم

والتفاخر بمقتضاها؟ وهل هذا الذى جعل كل طائفة تنظر إلى نفسها على أنها الفرقة الناجية، وإلى سائر الطوائف الأخرى على أنها هالكة، ومصيرها إلى النار؟ وما الذي يترتَّب على ذلك من حواجز نفسيَّة وقطيعة وتقاتل فى بعض الأحيان؟

٤ ـ قامت حركات تجديد كثيرة دعت إلى تقارب المسلمين قديمًا وحديثًا، لكن عوامل الفرقة والاختلاف كانت أقوى من سائر المحاولات، فما تلك العوامل؟ وما أسباب قوتها؟ وهل من سبيل للتغلب عليها؟ وكيف؟

٥ ـ يسير العالم بخطى واسعة لتجاوز النزعات المفرِّقة، وقد تضحى بعض الشعوب بكثير من خصوصيَّاتها لتتجد أو تتآلف مع غيرها؟ لأنَّها ترى فى ذلك مصالحها، فهل يتوقع أن يستفيد العراقيّون والعرب والمسلمون من هذه الدروس، فيعملوا على تجاوز خلافاتهم، وتوحيد كلمتهم، والتنسيق والتضامن فيما بينهم؟ وكيف؟

٦ ـ استطاعت أوروپا إيجاد «جماعة أوروپية» واحدة رغم الاختلافات والحروب واختلاف اللُّغات والمصالح، مع أن الذى بين البلدان والأقطار العربية الأعضاء فى الجامعة العربية، وبين الشعوب العربية والإسلامية من روابط ووسائل ودوافع «الوحدة والاتحاد والتضامن» أعلى كثيرًا فى درجاته مما بين الأوروپيين. فَلِمَ لم تُطَوِّر الجامعة العربية أو منظمة المؤتمر الإسلامى بحيث تقود الدَول الأعضاء إلى مثل ما فعلت المنظمات الأوروپية؟ ولِمَ لَمْ نلاحظ تحركات جادة فى هذا

الاتجاه؟ وما السبيل إلى إحياء هذه الدوافع وتنشيطها؟ وهل من سبيلٍ لتحقيق وحدة أو اتحاد أو تضامن حقيقى، يمكِّن العرب ثم المسلمينَ فى الحد الأدنى من الدفاع عن أنفسهم؟ فالأخطار صارت حقائق على الأرض، ولم تعد فى دائرة التوقع فحسب. ولو أن العراق أو أفغانستان كانت كل منهما ضمن وحدة إقليمية أو قوميّة أو إسلامية لربما ترددت أمريكا ألف مرة قبل أن تحتل أيّا منهما، ومثلها روسيا قبل احتلالها أفغانستان. فهل تعى بقيّة البلدان العربية والإسلامية الدرس خصوصًا السودان وليبيا و . . . ؟

٧ ـ كيف يمكن تحقيق تكافؤ فى إطار تعددية دينية ومذهبية وعرقية، وما النظريات والأساليب التى يمكن أن تساعد على تحقيق ذلك؟

٨ ـ معظم حركات الإصلاح فى المحيط الاجتماعى الإسلامى قد تراجعت دون تحقيق أهدافها، ما تفسير ذلك؛ بالنسبة لكل من هذه الحركات؟ حيث إن الفشل قد عم الجميع؟ الإقليمى والقومى والإسلامى على حد سواء، فهل من مراجعة على طريق الوعى؟

٩ ـ هل يمكن جعل العراق بإمكاناته المادية والبشرية ـ لو تم تحريره ـ بيئةً لبناء نموذج حضارىّ وديمقراطىّ حديث؟ وكيف؟ وإذا فرض إمكان ذلك، فهل يصلح العراق لأن يكون منطلقًا لتجديد بناء الأمة؟ وهل يتم ذلك تحت سنابك المحتل، أو بقيادته؟

١٠ ـ حزب البعث كيف نشأ؟ وما أفكاره ومذهبيّته وفلسفته؟ ولماذا كان

من أخطر التكتُّلات التى كان لها النصيب الأكبر فى سائر وقائع الفشل والتراجع والهزيمة لهذه الأمة منذ تأسيسه، فهل حاول النهوض بهذه الأمة - مخلصًا - ففشل، أو أنَّه أسِّس ليقود لهذا الفشل؟ وما الدليل على كل منهما؟

١١ - ما العلاقة بين فلسفة «حزب البعث» ومبادئه وبين الطائفيَّة السياسيَّة فى البلدين اللذين سيطر عليهما؟ ولمَ تحالف الحزب فى سوريا مع الأقليّات المسيحيَّة والعلويَّة؟ وفى العراق تحالف مع مجموعة «البكر - صدام» التكريتيّة المعروفة بطائفيّتها المقيتة وتعصّبها الشديد ضد الشيعة؟ ولمَ لم يكن العكس فيتحالف الحزب مثلاً مع الشيعة فى العراق ومعَ السنَّة فى الشام؟ وما العناصر الفكريَّة التى هيأت لحزب البعث فى القطرين استقطابَ تلك الأقليَّات؟

١٢ - لماذا اعتمدت بريطانيا بعد ثورة العشرين على رجالات سنيِّة لحكم العراق فى مرحلة الانتداب ثم المعاهدة، دون إغفال لبعض القيادات الشيعية والكردية؟ ولماذا اعتمدت أمريكا على قيادات شيعية، دون إغفال لبعض الأسماء السنية؟ وما دلالات كل من التوجهين؟

١٣ - فى الاحتلال البريطانى جرى الاعتماد على بعض رؤساء القبائل، وتتكرر الظاهرة على أيدى الأمريكان بعد مرور أكثر من ثمانين عامًا، فما دلالات ذلك على مستوى الجدية من عدمها فى تحقيق الديمقراطيّة، والنماء الاجتماعى، والإصلاح التربوى بالذات، إضافة إلى التنمية؟

١٤ ـ من المستفيد الأول من عزل العراق عن محيطه العربى والإقليمى، وما إيجابيات ذلك وسلبياته؟

١٥ ـ هل يمكن بناء ميثاق شرف شعبى نموذجىّ تصادق عليه وتتبنَّاه جميع القوى العراقيَّة بحيث تكون له قوة إلزام طوعىّ واختيارىّ تلتزم به سائر الفصائل، وتُربَّى الأجيال الطالعة عليه ليوجد الجيل العراقى السليم الذى نتطلع إليه؟ وما معالم هذا الميثاق؟ وكيف يصبح جزءاً من ثقافة العراقييّن؟ ثم كيف يصبح جزءاً فى ثقافة العرب، وجل بلدانهم مماثلة للعراق من وجه أو آخر فى خارطته الاجتماعية؟!

هذه الأسئلة هى بعض ما تحاول هذه الدراسة أن تجيب عنها، وإذا لم تجب عنها ـ كلّها ـ بنجاح فيكفى أنها أثارتها وطرحتها على القراء ليشاركوا بفاعلية فى صياغة الجواب عنها، وتوضيح ما يتعلق بها، وكلنا أمل أن تكون هذه الأسئلة قادرة على حمل أبنائنا من الأجيال العربيّة والعراقيّة الطالعة على التفكير والتدبُّر؛ لأنَّ طول معايشة الشعارات، وقيادة الجهلة قد صادرت من الناس حاسة الفكر وحق التفكير، إلا فيما يطرحون من خادع الشعارات، ومختزل الأهداف؛ لأن فاقد الشىء لا يعطيه، والجهلة إذا ساسوا أمة أو قادوا شعبًا فإنَّهم لا يعرفون إلا كيف يقمعون مخالفيهم سواء عارضوهم أم تركوهم وشأنهم، فالجهل إذا اتصف به من هو فى موقع قائد واستمرأه، بل وافتخر به ـ كما كان يفعل صدام ـ لا يأتى إلا بالدمار، فمثل هذا القائد يظن أنه بالغطرسة، والنفخة الكاذبة، واستعمال أساليب القمع والقسوة والشدة بكل أنواعها سيبقى

وراء عجلة القيادة لأطول فترة يستطيعها . فلا بد لأجيالنا الطالعة من إعادة بناء النفس وإعادة تشكيل العقل أولاً ، وبناء القدرة على التفكير السليم والتخطيط المنهجيّ في سائر أمور الحياة . لأنَّنا أحوج ما نكون إلى استيعاب الدروس التي يمكن استفادتها من كل ذلك التاريخ الطويل العريض ، والتجارب المرة والحلوة التي عاشها شعبنا ، وتوعية الأجيال بها ، لمعرفة كيفية النهوض بعد السقوط ، وكيفية الانتقال من حالة انعدام الفاعليَّة وتحقيق الإرادة إلى حالة الفاعليَّة والإرادة .

* * *

حقيقة حزب البعث وتكوينه

«حزب البعث العربى الاشتراكى» حزب ولد عام (١٩٤٣م)، وقد يكون هذا الحزب هو الحزب الوحيد الذى ولد مجزءًا غير كامل الخلقة، وَلَدَتْ نصفه الأول فئة متعلمة من مدرسى المدارس الثانوية فى العاصمة السورية دمشق، وفى ثانوية محددة كانت تعرف فى سنوات الحرب العالمية الثانية بـ «ثانوية التجهيز الأولى» ثم سميت بـ «ثانوية جودت الهاشمى»[١] ولا ندرى ما اسمها الآن. وكان هناك اتصال وتجاوب بين طلاب هذه الثانوية وطلاب ثانوية دمشقية أخرى هى «ثانوية عنبر»[٢].

كان هناك أستاذ ثانوى هو زكى الأرسوزى [ت ١٩٦٨م] من أبناء لواء «الإسكندرون» قاد حركة مقاومة طلابيّة ضد تتريك اللّواء المذكور. بعد أن درس الفلسفة فى فرنسا. وتخرج فيها، واتصل بما كان الفكر الفرنسى يموج به فى تلك المرحلة من أفكار، وقد انطلق بعد عودته إلى لواء «الإسكندرون» يدعو إلى «البعث العربى» الذى اعتبره الحل الوحيد لتحرير «لواء الإسكندرون» من احتلال فرنسا ومن دعاة التتريك فى وقت واحد. ولم يلبث الأرسوزى إلا قليلاً حتى صار أقرب ما يكون إلى مرتبة الزعامة الثقافيَّة والسياسيَّة فى «اللواء السليب» كما كان يطلق عليه فى أدبياته. وقد اضطر لمغادرته بعد أن ألحق رسميًا بتركيا الجديدة. وغادره معه مجموعة من طلابه من أبناء اللواء المذكور إلى دمشق. وقد قدم

الأرسوزىُّ نموذجًا من العمل السياسى لا عهد لدمشق به، فمن حيث الفكر كان فكره ثوريًا فجَّرته عمليات الكفاح المتنوع لإبقاء لوائه جزءًا من سوريا لا من تركيا، والمحافظة على هُويَّته العربية، وأكسبت قضية الإسكندرون فكره طابعًا عمليًا متحركًا لم يكن متوافرًا لمفكرى ثانويات دمشق أمثال عفلق والبيطار. وكانت الفواصل واضحة فى ذهن الأرسوزى بين فكر الزعامات التقليدية وفكرة البعث العربى الذى يتخيله ويريده. فقد عاصر الرجل اليسار الفرنسى وتتلمذ على بعض رموزه، وحاول توظيف جوانب من الفكر اليسارى الفرنسى فى التركيبة البعثية القومية بنجاح أغرى شباب ذلك الجيل ولفت أنظارهم إليه، فقد حول حصيلته الفكرية إلى أيديولوچية مثالية يمكن للمتعلمين الباحثين عن عقيدة للعمل والتنظيم تفصلهم عن مجموعات الشيوعيين والإسلاميين والزعامات التقليدية معًا أن تتبنَّاها فانتشرت مدرسته الفكرية واشتهرت عام (١٩٥٠م) فى أوساط الطلاب الذين وجدوا فيه مصدر الأيديولوچيا والزعامة وأساليب العمل القومى المنظم[٣]. فاكتشفت الزعامات التقليدية الشامية والمدرسون الذين لم يكونوا قبل الأرسوزى أنهم يواجهون منافسين لهم وزن مهم بهذا المستوى، فبدأت عمليات تحجيمه ومحاصرته من هؤلاء جميعًا. فكل هؤلاء قد رأوا فى هذا الغريب الطارئ على البيئة الدمشقية السياسية تهديدًا.

أما ميشيل عفلق وصلاح البيطار فقد كان لهما أسلوبهما الخاص فى تحجيمه بعد احتوائه ثم استهلاكه فكريًا. فقد دعا الرجلان الأرسوزى

للتعاون مع النواة التى شكلاها أو كانا يهيئان لتشكيلها «البعث العربى»، وهى النواة التى حاولا أن يقنعاه بأنها انعكاس لأفكاره، وتعبير عن فلسفة التوافق معه، لكن الأمر لم ينطل على الأرسوزى فبعد لقاءات محدودة معهما خرج ليتهم عفلق والبيطار بالتواطؤ مع المخابرات الفرنسية للإجهاز على حركته الناشئة، ورأى فى شخصية عفلق وتصرّفاته وجهوده تلك تحالفًا مع المخابرات الفرنسية لإجهاض حركة «البعث العربى» باسم «البعث العربى»، كما كان له مثل ذلك الرأى فى الزعامات التقليديّة ـ الدمشقيّة ـ التى خضعت لمساومات المحتل الفرنسى، وقبلت التعاون معه لإجهاض ثورات الشعب!! ومحاولاته لتحقيق التحرر الحقيقى، وراح الأرسوزى يعقد الحلقات فى بيته وفى المقاهى وفى الفصول التى يدرس فيها للتنديد بالزعامات التقليدية وبعفلق والبيطار واتهامهم ـ جميعًا ـ بالتواطؤ المكشوف مع قوى الاحتلال الفرنسى لإجهاض ثورات الشعب(٤)، وقد كان رد فعل عفلق ضد الأرسوزى عجيبًا حيث تبنَّى عفلق أفكار الأرسوزى فى «البعث العربى» وانتحلها على أنَّها أفكاره، وصار يعبر عنها بلغته وطريقته، ويعتبرها «الأيديولوچيا القومية» التى ابتعث عفلق للتبشير بها والدعوة إليها.
وحين نتابع المعارك الفكرية قديمًا وحديثًا، ونحاول رصد أسلحة معارك «الكلمة والمعتقد» (٥) لا نرى سلاحًا أشد فتكًا بالأفكار من تبنِّيها بعد تفريغها من محتواها، وجعلها مجرد شعار لا مضمون له. وإذا بحثت عن المضمون من خلال الشعار أو شرحه قيل لك: إنَّه شعار ذو حرمة وقدسيَّة لا نسمح لأحد بتحليله أو تفكيكه حتى إذا كان من أولئك

الملتزمين به، لأن «تحليل» الشعار يفقده قدسيَّته، ويزيل عنه حرمته[٦]. لأن ميشيل عفلق يدرك أنَّه لو تم تحليل تلك الشعارات لبرزت الأفكار الكامنة فيها، والمرموز إليها بها، فيفقد عفلق صفة «الإبداع».

وهكذا كان عفلق والبيطار قد استوليا على فكر الأرسوزى الذى أمد مجموعتهما بالأيديولوچيا وإمكانات الزعامة، وأچندة العمل القومى المنظم، بحيث كان يتوقع أو يفترض أن ينطلق الحزب بين الجماهير، ويبدأ مرحلة التفاعل مع قضايا الشعب والالتحام به، ولكنَّه بدلاً من ذلك قد دخل - بشكل ملفت للنظر - عزلة لم يكن سهلاً عليه مغادرتها والخروج منها لولا الحظ السيئ للأمة العربية الذى وافاهما بانتصار آخر، حيث انضم إلى فئتهما المعزولة تجمُّع إقليمىٌّ آخر كان يحمل عنوان «الحزب العربى الاشتراكى» وهو حزب حموى النشأة والانتشار كان يتزعمه أكرم الحورانى. وكان أهم أهداف ذلك الحزب هو مقاومة من سمُّوهم بالإقطاعيِّين فى حماة. والوصول إلى الحكم بأية وسيلة متاحة، ولذلك كان الحورانى يركز على وسيلتين أساسيتين عنده هما: العمل على تحريض الفلاحين ضد ملاك الأراضى، ومحاولة الوصول إلى عناصر عسكرية يمكن التأثير عليها، وتحويلها إلى أدوات فى اللعبة السياسية[٧]. وباتحاد مجموعة الحورانى مع مجموعة عفلق والبيطار ولد النصف الثانى من الحزب ليصبح «حزب البعث العربى الاشتراكى» يقوده الثلاثى عفلق والبيطار والحورانى[٨]، بكل ما يحمل ذلك الثلاثى العجيب من عقد ومركبات نقص ومطامع وأهداف وعلاقات مشبوهة وغير مشبوهة.

لعل معرفة هذه الولادة العجيبة للحزب تثير أكثر من علامة استفهام!! وتنبه بشدة إلى ذلك المناخ الفكرى والسياسى المضطرب الذى ولد الحزب فيه. فقد ولد فى سنوات الحرب العالمية الثانية وفى ظل احتلال الجيوش البريطانية، وبقايا القوات الفرنسية لقلب العالم العربى، وعلى أيدى قادة تحيط بهم الشبهات من كل جانب، ولا يخفى عجزهم الفكرى والجهادى على متابع لتلك الفترة الدقيقة الحرجة من تاريخ سوريا ولبنان والمنطقة. إضافة إلى أن المرحلة كانت مرحلة إرهاصات سَبقت قيام إسرائيل وولادتها - التى لم يكن يخفى على قادة النظام العالمى - آنذاك - ضرورة تهيئة المنطقة كلّها لاستقبال ذلك الوليد الطارئ وتبنِّيه، وضمه إلى «أسرة حاضنة» هى «أسرة الشرق الأوسط الجديد أو الكبير» - كما يريدون أن يسمّوه الآن.

وإذا كانت تركيبة القيادة بالشكل الذى وصفناه، فإن تركيبة الحزب كلها لا تقل عنها عجبًا فى إثارة الشكوك والتساؤلات عن تلك القيادة الثلاثية، فقد ضم «حزب البعث» فى صفوفه الأولى غالبية من أبناء الأرياف الذين انتقلوا من القرى والأرياف إلى مراكز المحافظات التى تتوافر فيها المدارس الثانوية لمواصلة الدراسة، وكانت الخلايا الأولى للحزب تستقطب أبناء طوائف معينة «فاللوائيون» أو أبناء «لواء الإسكندرون» الذين استطاع عفلق أن يستقطبهم حوله - بعد محاصرة الأرسوزى - وهم من أتباع الأرسوزى سابقًا، كانوا ينتمون إلى الطائفة «العلوية» فصار هؤلاء دعاة للحزب بين أبناء طائفتهم من شباب جبال

العلويين ليجندوا دعاة آخرين للحزب من أبناء ثانويات اللاذقية والساحل.

وكان لعفلق صلات عائلية بحكم انتمائه إلى عائلة نصرانية تسكن حي «الميدان» في «دمشق» وتتعامل مع الجنوب - أي حوران وجبل العرب «الدروز» - ولها صداقات مع بعض الأسر الدرزية سرعان ما وظفها للوصول إلى طلاب الثانويات الدروز في دمشق والسويداء مركز محافظة جبل العرب، وقد تحددت بنية الحزب منذ البداية بطبيعة البنى الاجتماعية التي انحدرت منها تلك العناصر الحزبية الأولى: فكانت بنية ريفية من نوعية أنصاف المتعلمين من طلاب بالدرجة الأولى ثم أساتذة وموظفين. ومن جذور طائفية محددة؛ تأتي بالدرجة الأولى منها الجذور العلوية، ثم الدرزية، فالإسماعيلية، فالمسيحية. وقد ترتب على ذلك أمور كثيرة(٩).

مصادر فكر حزب البعث

مصادر فكر «حزب البعث» محدودة جدًا، ولذلك فإن البعثيّ الذي يريد أن يحمل صفة «مثقَّف» لا بد له من تجاوز ثقافة الحزب ومصادرها، والبحث عن الزاد الفكري والثقافي في مجالات أخرى خارج مصادر فكر الحزب وثقافته؛ إذ أن مصادر فكر الحزب وثقافته الرسمية لا تتجاوز:

١ - مجموعة أحاديث وكلمات مرتجلة بدون إعداد مسبق يلقيها عفلق، أهمها ما كان قد ألقاه خلال السنوات الأولى لتأسيس الحزب على شباب «الطلائع الأولى للبعث»، وهي التي حولها الحزب إلى كتب تحمل

عناوين جذَّابة إضافة إلى اسم المؤلف مصدَّرًا بلقب «القائد المؤسِّس».

٢ ـ مجموعة مقالات عفلق والبيطار الافتتاحية السياسية لجريدة الحزب فى الفترة التى سبقت انقلاب حسنى الزعيم عام ١٩٤٩م، وكانت تلك المقالات مكرسة لتوجيه النقد السياسى الساذج لمظاهر الحكم الوطنى الذى أعقب جلاء الفرنسيين عام ١٩٤٦م.

٣ ـ منشورات الحزب ضد الحكومات السورية المتعاقبة بعد الجلاء، وكلها من إعداد عفلق، والبيطار، ويساعدهما بعض شباب الحزب.

٤ ـ مجموعة مقالات مترجمة فى الفلسفة والأدب والسياسة لبعض المفكرين الفرنسيين اليمينيين واليساريين.

٥ ـ بعض كتب حررها بعض كُتاب الحزب الذين كانوا مرضيًا عنهم من عفلق فى تلك المرحلة، منها كتابات منيف الرزاز وعبد الله عبد الدايم.

ولذلك كانت قيادة الحزب تكثر من إحالة الأعضاء على تراث لا ترى بأسًا به لسد ذلك الفراغ. وكان بعض الأعضاء يحاولون البحث عن زاد ثقافى بأنفسهم، فقد يقبل بعضهم على الدراسات الماركسية أو الدراسات التى تناولت قضايا العرب قبل الثورة العربية فى (٩ شعبان) وما بعدها. ولذلك كان من الصعب أن يقال: إن الحزب قدم لأعضائه ومناصريه دليل عمل فكرى واضحًا أو غامضًا [١٠]. ومع كثرة أحاديث البعثيين عن الثقافة فقد كان الحزب بدون ثقافة [١١]. والذين يسمون بـ «مثقفى

الحزب» ليسوا أكثر من مجموعة من حملة الشهادات، (وللحزب طريقته الخاصة فى تزويد بعض أعضائه بالشهادات والرتب)!! ومنذ أن ولد الحزب وحتى اليوم لم يستطع الحزب أن يقدم نفسه على أنه صاحب مدرسة فكرية، كما لم يستطع أن يقدم برنامجًا عقائديًا واضحًا. فالحزب فى نظر عفلق مهمته أن يشق الدرب لا أن يعبِّده لسالكيه، فالمهم أن تعلن أهدافًا تحسن اختيارها وتنادى بها، وتحولها إلى شعارات يسهل على الجماهير حفظها وترديدها والمناداة بها مثل «أمّة عربية واحدة ذات رسالة خالدة»، «الطليعة»، «البعث»، «الأصالة»، «قدر الأمة»، «الموضوعيّة»، «المرحلة التاريخيّة»، «اللحظة التاريخية»، «الوحدة»، «الحريّة»، «الاشتراكيّة»، «المؤامرات الاستعماريّة»، «العوامل السلبيّة»، «الثورة»، «إجهاض الثورة»، «العنف الثورى»، «الطهر الثورى»، «العهر الثورى»، وتأخذ خطابات وأحاديث عفلق وتلامذته توكيدات على كل ما يطرحه الحزب وكأنها أركان إيمانيّة متلازمة «فلا بد من الوحدة ولا بد من الحريّة ولا بد من الاشتراكيّة»، وكل هذه «اللاّبُدَّات» غير قابلة للتعليل ولا للتحليل ولا للمناقشة ولا للتقديم ولا للتأخير، فالحديث عن هذه العلاقات محرم(١٢)، وجيلنا لا يزال يتذكر اختلافات الحزب مع الراحل عبد الناصر على تقديم الحرية على الوحدة أو العكس فى الشعارات المطروحة.

أما الإحالات فقد أبدع القائد المؤسِّس فيها، وحين نقرأ أدبيّات الحزب وخاصّة ما كتبه عفلق نجد أن فى ذهن الرجل نموذجين مثاليين. النموذج الأول: هو صورة المجتمع الغربى «الفرنسى خاصة»، والنموذج الثانى:

هو نموذج العربيّ الجاهليّ ذي العرق النقيّ والخيال الخصب والشعر والفروسيَّة. ولأنّه لا يستطيع التصريح بهذا النموذج المركب العجيب الذي يجمع بين جاهليّة العربي الجاهليّ، والنموذج الفرنسيّ المتقدّم بقدرة خياليّة عجيبة فإنَّه كان يفضل اختزال الأفكار إلى شعارات وعبارات خطابيَّة يرفض البحث في معانيها. ولا يسمح لأحد بتحليلها أو مناقشتها حتى لو كان من قادة الحزب.

إنه يصر على ترديد كلمة «البعث العربي» تاركًا لكل واحد أن يفهم منها ما يشاء وما يريد، إذ يكفي عنده أن يردد كلمة كهذه تستدعي جملة كبيرة من الإيحاءات لا حصر لها تمتد فيما بين الدنيا والآخرة، ولكن ما الذي يريده القائد المؤسِّس؟ هل هو بعث الماضي العربي أو التاريخ العربي؟ وما الذي يراد له أن يبعث منه أهو الجاهليَّة - التي يصفها بالنقاء العرقيّ - أم الإسلام أم شيء آخر يؤلّفه من بينهما؟ أم ماذا؟ هذا ما يطوي عفلق عليه جوانحه؛ لأنَّه في نظره أكبر من أن تحتمله العقول التي لا تحمل عبقرية مثل عبقريته الفذّة!!

وهكذا شأنه مع سائر الشعارات والمصطلحات التي تم طرحها: غموض وإبهام، مع طنين ورنين، واحتمالات لا تنتهي، وأما إصراره على عدم تحديدها فذلك لأن «القائد المؤسِّس» يدرك أن فهم الأطروحات والشعارات يقود إلى البحث عن أصولها وجذورها، ويحمل على المطالبة بالتدليل عليها، وقد يؤدي إلى رفضها، وطلب البدائل عنها. وفيلسوف الحزب لا وقت لديه لهذا الصداع فليطرح ما يشاء، وليخفِ

وراء ذلك من المعانى ما يريد، ثم يستأثر - وحده - بتحديد المراد إذا شاء ووقت ما يشاء؛ لأن المعانى - كل المعانى - يجب أن تبقى فى بطن القائد المؤسس. ولا زال جيلنا يذكر أن الرئيس الراحل عبد الناصر بعد لقاءاته بعفلق فى محادثات الوحدة خرج يقول للناس فى خطبة معلنة: «الأستاذ بتاعهم ما اقدرتش أفهم منه غير «يعنى يعنى يعنى»، كل كلمة يقولها يردد بعدها «يعنى يعنى يعنى» وبعدين ما تفهمش يعنى إيه»!!

وقد كان عفلق حين تبنَّى دعوات عبد الناصر وأيَّد سياساته يستهدف ركوب الموجة لتحقيق وحدة مستعجلة، يمكن فكها فى أقل من الوقت السريع الذى أبرمت فيه، كما أنه كان يظن أنه سيكون قادراً على التأثير فى عبد الناصر بذات المستوى الذى أثر فيه على الضباط السوريِّين، وبذلك يستولى على عبد الناصر وشعبيّته ومكانته، وما كان له من أمجاد فى تلك المرحلة لصالح ذاته وحزبه. ولما رأى من عبد الناصر غير ما كان يتوهم سرعان ما نبه الخلايا النائمة للحزب الذى كان قد وافق على حله، نبه تلك الخلايا إلى خيبة أمله فى عبد الناصر وضرورة النهوض بالحزب من جديد، والتخلى عن عبد الناصر. وإذا بعفلق يضحى بالوحدة وينضم ومن كان معه من عسكريين ومدنيين إلى خصوم لها، يتآمرون لفكها حتى حققوا الانفصال.

ذلك مفهوم هذا الحزب وبناؤه التاريخى، والمصادر الساذجة لفكره، أما فلسفته ومذهبيته إن جاز أن نطلق عليها فلسفة ومذهبية فتتلخص فيما يلى:

يقول ليونارد بايندر[١٣] : «يمثل عرض عفلق للفكرة القومية من منظوره البعثىّ خليطًا من الفلسفات العربيّة الشائعة، فهو يأخذ من هيردر[١٤] مقولته : «إن لكل أمة رسالة خاصة بها، عليها أن تؤديها، وإن فى وسع كل أمة أن تسهم عن طريق هذه الرسالة فى تحقيق الانسجام العالمى»، ويضمِّن عفلق عرضه ـ أيضًا ـ تأكيد هيجل على التاريخ وعلى الوجود القومىّ فيه، لكنه يستعيض عن جدل هيجل المنطقى، بمفهوم «الحلقة التاريخيَّة» فى الصعود والهبوط . وتظهر فى كتابات عفلق ـ أيضًا ـ نظرية ماركس فى الصراع الطبقى، كما يضمنها تأكيدًا كبيرًا على الأساس الاقتصادى للسياسة، ولكنه يرفض «الحتميَّة» التى تبنَّاها ماركس، كما يرفض «التفسير المادى» رفضًا كاملاً . وكانت الاشتراكية التى تبنَّاها عفلق جزءًا من فكرته القومية البعثيَّة، تمامًا كما كانت صهيونية بورسوف جزءًا من اشتراكيته، وأخيرًا نجد فى كتاباته شيئًا من «المذهب الحيوى» الذى نادى به برجسون»[١٥] .

ويشرح بايندر كيف قام عفلق بانتقاء وتلفيق مركب مذهبيته من هؤلاء الأربعة : فيقول : «ومن المفيد إلقاء بعض الضوء على نظرية عفلق القومية البعثية ما دام بصياغته هذه يكاد يخلو من المعنى (على حد تعبير الكاتب)، وقد أخذ من هيجل مذهبه بعد تطويره . فالمذهب الجدلى عند هيجل فحواه : أن الحياة العقلية منفصلة تمام الانفصال عن التاريخ الواقعىّ، ولذلك استعاض عنه بمفهوم «الحلقة التاريخيَّة فى الصعود

والهبوط»، وهذا المفهوم يمثّل رؤية عفلق للتاريخ العربى وتمثيله بحلقات يبلغ فيها أوج مجده ثم ما يلبث أن يتردى إلى الحضيض، والمعيار لديه فى هذا الارتفاع والانخفاض هو نقاء العنصر باعتباره المقياس الوحيد، ويلعب تفسيره هذا للتاريخ دورًا أساسيًّا فى نظريته القوميّة البعثيَّة، ولذلك عارض التفسير المادى للتاريخ.

وبتلك التعبيرات والنظريات الملفقة المزيج عن «القومية العربية البعثية» استطاع عفلق أن يصوغ مذهبيَّة الحزب بعد أن انتقى من تلك الأفكار انتقاءً بحيث لواها كى تلتئم فى نسيج واحد للتعبير عما أراده، فلقد لفق وطرح تصورات وحذف أخرى وحوّر وحرّف فيما حذف وفيما أخذ، نعم إنه فعل، ولكن فى مثل هذا المجال، وهو مجال فلسفى، هل يحق للفيلسوف أن يعرّف الشىء أو الحدث كما يريد أو يتصور؟ جواب عفلق؛ نعم، ولذلك تبنَّى عفلق هذه الفكرة، وهى: «أن الفكر يتصلب فيعند، ومن يعند ينته إلى أن يلوى الأشياء، وفقًا لفكرته بدلاً من تنظيم فكره وفقًا للأشياء»[١٦]، ولذلك فإن القائد المؤسِّس قد لوى عنق الفكر القومى كله ثم الفكر الإسلامى كله ليقدم لمن يغتر بفكره من أنصاف المتعلمين تلك الخلطة العجيبة المتنافرة من الأفكار.

حتمية الانتماء إلى البعث

تتلخص رؤية عفلق فى «النظرية القوميَّة البعثيَّة» أن مرحلة الانحطاط التى عاشها العرب فى عصر تأسيس الحزب ولا يزالون يعيشونها فى

الوقت الراهن جعلت كثيراً منهم لا يفهمون حقيقة أنفسهم ولا حقيقة قوميَّتهم ولا يدركون فى الحقيقة هُويَّتهم، فصاروا غير مدركين أنه ليس أمامهم مجال لاختيار أن يكونوا غير بعثيين؛ لأنَّ «القوميّة العربية البعثيَّة» موجودة فيهم من غير أن يكون للإنسان العربى دخل فى تقبّله الإيجابى والاختيارى لها(١٧)؛ لأنها تعنى «القومية العربية البعثية» شبيهة باسمه أو صورته، فهى جزء ثابت وفطرى فى ماهيته نابت فيه حتى قبل مولده، وكما أن من العبث أن يضيع الإنسان حياته فى التألم؛ لأنه لم يولد فى أسرة غير أسرته، أو يحمل صورة غير صورته، فإن من العبث أن يحاول تحرير نفسه مما يربطه بأمته أو يشده إليها، ويكرر القائد المؤسِّس هذا المعنى فى أكثر من كتيب من كتاباته(١٨).

رفض عفلق التحليل واعتماد الرؤية

ومن هذه الرؤية يعتقد عفلق: أن مسألة القوميّة البعثيّة لا تحتاج إلى تحليل مقوِّماتها أو عناصرها، فهى بديهيّة أوليّة لا تحتاج إلى برهان، فكأنّها من البديهيات أو مسلَّمات ما قبل المنهج، وهو فى هذا يأخذ عن برجسون قوله: «إن التحليل إنما هو تفكيك للأشياء إلى عناصر ثابتة، غير أنه تفكيك لن يفضى إلا إلى عالم مجرد أجوف»(١٩). ويصف عفلق «التحليل» بأنه يعرى الأمور من لحمها، ويقود إلى عدم الدقة، وإظهار المتناقضات بمظهر المتشابهات، وتحويل الحقائق إلى مجرد كلمات(٢٠)، فكلاهما هنا عفلق وبرجسون يرفض الاستقراء والاستنباط، ويعتمد «الرؤية» لأن الرؤية ـ فى نظرهما ـ تنفذ إلى الأشياء دون وسيط، وما هو

أوّلى لا يحتاج إلى برهان، خلافًا لما هو نظرىّ أو كسبىّ - عند عفلق - أما الأوّلىُّ فهو نقطة البداية لأىّ برهان [٢١]، وعندما يرفض عفلق «التحليل» فإنَّه من الجهة الأخرى يتمسك بـ «الأيديولوچية».

الحزب هو الأمة

يقول عفلق: «الأمة ليست مجموعة عدديّة وإنما هى أيديولوچيّة تتجسَّدُ فى تلك المجموعة أو جزء منها [٢٢]، والجزء المقصود من المجموعة هو طلائع الأمة العربية أى «الحزب» الذى يقع على عاتقه عبء تعبئة الأمة وراء الفكرة القومية البعثية وقيادتها فى أداء رسالتها الخالدة. وهنا يصبح الحزب هو الأمة، ودور الأمة لا يعدو أن يكون فى جعلها تنكبّ على متابعة فكر الحزب صُمّا وعميانًا فى حالة تقليد ومتابعة لا تبالى إذا كانت تلك المتابعة تحدث للأمة قناعة بذلك الفكر أو لا تحدث، فالاقتناع العقلىّ لا أهميَّة له، والأهميَّة كلّها يجب أن تنصبَّ على إيجاد الإيمان أو اليقين الأعمى بأفكاره».

ويعلق ليونارد على ذلك بقوله: «ليس من العسير أن يكون وراء هذا الرأى إيمان بالجماعيَّة الصارمة ونزعة سلطويَّة ترغم الناس على الحريَّة!! أو تجبرهم على إدراك مصائرهم الصحيحة مهما كانت معتقداتهم الواعية، فالمشكلة فى رأيه مثل كل شىء حملُ العربىّ على الإحساس بطبيعته الأصليّة، فهو يفترض القبول على أساس الإيمان» [٢٢].

إن ميشيل عفلق وضع تصوراً جديداً للفكرة القومية البعثية ينسجم

والمذهب القومى الخاص بالبعثيِّين الذى صاغه باقتباساته المشار إليها، والواقع أنَّه توخى بذلك نقطتين مهمتين فى العقيدة البعثيَّة هما:

- إعادة صياغة فكرة «القوميَّة العربيّة البعثيّة»، لتكون إطاراً مناسبًا للمذهبيَّة وخصوصيَّاتها، ولفصل البعثيِّين عن بقية الفصائل القوميَّة، فلا تنطبق عليها انتقادات المسألة القوميّة بعامّة، فهى مختلفة عن القوميّة الغربية فى شقيها الماركسى والتقليدىّ من ناحية، وغلق الباب أمام تحليل القوميين العرب الذين وصفهم عفلق بالرجعيّين الذين يقحمون الدين عنصراً أو مقوّمًا من مقومات هذه القوميّة.

- وأكد أن الطليعة هى وحدها التى تعى قوميّتها فى مرحلة الانحطاط، وتستوعب قيمها، وقد ألهمت الإيمان بدور قوميَّتها إلهامًا، فهى تتولى قيادة ثورة البعث، وثورة البعث هى إجراء البذل الفطرىّ والخلقىّ لتحقيق أهداف الحزب.

البعثيون وتبديل القيم العربية

ولقد أجاب عفلق عن سؤال عن ماهية البعث وأهدافه فقال: «إن الهدف هو تبديل القيم الاجتماعية للعرب، لذا فإنه هدف بعيد المدى، إذ أن الثورة يجب أن تتناول طريقة الناس فى التفكير»[٢٤] إضافة إلى الأفكار ذاتها.

الطلائع والقسوة والاستبداد

لذلك فالطليعة من حقها أن تتحدث باسم المجموع، لكى تقوم بدورها فإن على هذه الطلائع أن تحتفظ بحبها للجميع(٢٥)، وإذا قدر لها أن تقسو فى معاملتها على الآخرين، فإنما تفعل ذلك رغبة منها فى إعادتها إلى أنفسهم، وعندما يقسو الآخرون عليها فإنَّ هذا يعنى: أن هؤلاء ينكرون أنفسهم وينكرون ذاتهم، فإرادتهم الحقيقية مع هذه الطلائع وإن كانت خفية وكامنة، وإن ظهروا بمظهر الذين يعملون ضدها. إذن: فإن هذه القسوة على الآخرين إنما هى من أجلهم، فهى تحتفظ بحبها للجميع، وبذلك شرَّع عفلق للقسوة والاضطهاد واعتبر الطغيان مشروعًا للطلائع البعثيَّة، لها الحق أن تمارسه على الأمة وفى مصلحتها، وذلك قد يفسر - إلى حدٍّ ما - ظاهرة استخدام الفنانين والأدباء، شعراء وكتابًا، محامين وأطباء وطلبة، ومعظم مثقفى الحزب، للتنويه بالقسوة والاضطهاد والإشادة بهذا الحق، حق القسوة، بهدوء ولذة، ومن لم يستطع منهم الممارسة فليمتِّع نفسه بالفرجة على الضحايا والمعذَّبين - الذين يقودهم سوء الحظ للوقوع فى براثن تلك الطلائع. أما القسوة إذا صدرت عن غير الطلائع فهى وحشية وإرهاب حزبىّ أو مستقل يفعله قوم هم أعداء أنفسهم قبل أن يكونوا أعداء تلك الطلائع. وتلقى قضية الطلائع فى عقيدة القائد المؤسس عفلق اهتمامًا خاصًا، وخير ضمان لتقويتها - فى نظره - هو الاحتفاظ بنقائها وصفائها، وذلك برعايتها منذ عهد الطفولة وهى ما تزال بذورًا لم تلوثها البيئة الاجتماعية؛ خاصةً وأن الهدف البعيد

الذى يتوخاه الحزب هو تبديل قيم العرب الاجتماعية وتغيير طريقتهم فى التفكير، بأن يُبدل بأفكارهم غيرها، بحيث تنتهى بإحلال أفكار الحزب محلها، ولذلك فإن التوجيه العقائدى ينبغى أن يتركز فى الطفولة المبكرة ليؤدى ثماره.

قيم حزب البعث والجاهلية

ولكن ما القيم الجديدة التى عمل عفلق وطليعته على تجسيدها فى العراق الذى ابتلى بحكمهم؟ وما طريقة التفكير القوميَّة البعثيَّة الجديدة التى حاول «حزب البعث العربى الاشتراكى» إرساء دعائمها فى العراق المنكوب؟ يتحدث مطاع صفدى فى مؤلفه «حزب البعث» عن آراء عفلق: بأنَّها «تنصب على الوصف والمبالغة، وصف عظمة الأمة العربية، ورفعها إلى مستوى الوجود الخارق، وإضفاء مختلف القدرات الفردية والخطابية عليها، وتنزيهها عن أية مفسدة أو نقيصة، وقد مهد عفلق أذهان أتباعه للاعتزاز بمرحلة «الجاهلية» من تاريخ العرب خاصة، واعتبار هذه الجاهلية بمثابة الأصالة الكاملة للوجود العربى، والقائد المؤسس يبدو تلميذاً فاشلاً وهو يحاول إسقاط فكرة «العصبية» الخلدونيّة ويعبر عنها بطريقته وبأفكاره. وبالمقابل حاول فكر عفلق إضعاف المرحلة الإسلامية، ولو بطريقة غير مباشرة، واعتبارها مرحلة تساهل أدت إلى خلط العرب بغيرهم وإضعاف بعض خصائصهم إلى حد كبير»[٢٦]، ولذلك أعاد تفسير الإسلام، وفسره كما فسر القومية العربية تفسيراً بعثيّاً يتناسب وذلك التوجه.

فلم يكن لدى البعثىّ ما يتعارض مع انتمائه الإسلامى حسب ذلك التفسير حتى لو رفض الإسلام شريعة وعقيدة وتبنَّى الماركسية اللينينية بديلاً عنه، وتأمّل قول شاعرهم:

آمَنْتُ بِالبعَث ربًا لا شريك لهُ ... وَبِالعُرُوبَةِ دينًا مَا لَـه ثَانِى

أو ما قاله شاعر بعثىٌّ آخر لصدام حسين:

تَبَارَكَ وَجْهُكَ القُدْسِىُّ فِينا ... كَوَجْهِ اللَّهِ يَنْضَحُ بِالجلال

ويقول القائد المؤسِّس: «إن تأثر الشباب بالأدب والحماسة الشعريّة والأساليب الخطابيَّة المباشرة أقوى من تأثره بالدراسة الجادة»، فانطلق المثقفون الثوريُّون من الصفر فى تاريخ أمتهم، وما زال تاريخ العرب مجهولاً حتى اليوم عند هؤلاء المثقفين البعثيين[٢٧]. وإذا قرأه بعضهم، فإنّهم يقرءونه بأقلام الآخرين.

الحزب والثقافة الغربية

لقد نقل عفلق تقليد الإعجاب بالثقافة الغربية إلى البعثيين، وأصبح الإقبال على قراءة «أندريه جيد» و«برجسون» أساسًا عقائديًا، ويلاحظ أن الكاتب «مطاع صفدى» رغم أنه كان من قيادات الحزب لفترة طويلة لم يستطع فهم هذه النزعة وتفسير دوافعها، فهو يقول: «إن عفلق ينادى بالبساطة وبذلك يمنع التعمُّق، وينادى بالإيمان فيمنع التحليل والمقارنة، ولذلك صار الثوريون يأنفون من طرح الأسئلة حتى على أنفسهم؛ لأن ذلك - فى نظر عفلق - يوحى بالتشكيك»[٢٨]. ولكن لو عدنا لفلسفة عفلق

فى «التاريخ وتفسيره للتاريخ العربى» وتناولنا مقولته : «إن التاريخ يتألف من حلقات تتراوح بين الصعود والهبوط»، لأدركنا على الفور أن تمجيده الحماسة والشعر والخطابة فى الأدب؛ لأنّها كانت فعلاً بعض مميّزات «الجاهلية» - عهد ما قبل الإسلام، وأن إشاعته الثقافة الفرنسية ودراسته فلسفة برجسون؛ لأن عفلق أخذ منه صياغة مذهبه فى عدم الاعتراف بالتحليل. وبذلك يحقق عفلق عدة أهداف : أولها : إحداث قطيعة بين الشباب العربى والإسلام والتراث الإسلامى، وتعويضهم عنه بالتراث الجاهلىّ، ثم العبور بهم من الجاهليّة إلى ما انتقاه من فلسفة برجسون وهيجل وهردر وماركس. فالإسلام ملوم - فى نظر عفلق - لأنَّه فتح الباب لخلط العرب بسواهم، ألم يكتب «طلفاح» خال صدام حسين والقيّم على تربيته كتابًا يلوم فيه الخالق - تبارك وتعالى - لأنه خلق «الفرس والأكراد والذباب». وأنه - سبحانه وتعالى، عمّا قال خال صدام علوّا كبيرا - كان مخطئًا فى ذلك.

ويرى عفلق أن مرحلة العهد الجاهلى قد شهدت اتحاد العرب ووحدتهم الحقيقية فى مجموعات عرقيّة متجانسة عبَّرت عن نفسها على الصعيد الثقافىّ فى الشعر واللغة والخطابة، وتحقق المثال العربى الأصيل لفترة قصيرة فى صدر الإسلام (وهى فترة بنى أمية فى نظره)، ولكن لما انتشر الإسلام بين الشعوب غير العربية اختفت الفروق بين الأجناس، وفقد العرب إحساسهم بالوحدة القومية، وتبع ذلك مرحلة الضعف، وشرع العرب فى إضاعة وحدتهم القومية. يعلق ليونارد على هذه الرؤية الجديدة فى التاريخ العربى قائلاً :

«إن القومية - كما يفهمها عفلق - هى الأساس، وإن عفلق يرى أن الدين هو الذى كان يقرر طبيعة الأمة العربية فى وقت من الأوقات، ولكن هذا الاتجاه «المرجعية الدينية» أدى إلى كثير من المتاعب، فمن الواجب تطور الدين مع العروبة، فكلاهما - على حد تعبير عفلق - ينبع من القلب العربى ويسير طبقًا لمشيئة الله، لا سيما وأن الدين عبقرية الفكرة القومية البعثيّة. قلت: وفى هذا إنكار للوحى وللغيب وتكريس للرؤية الماركسية فى وضعية الدين وبشريَّته، وتفسير «الوحى» بأنه انعكاس للمؤثِّرات المادية على دفاع ذلك الإنسان الذى يَدَّعى بعد ذلك النبوة أو الرسالة بناءً على ذلك. فالدين - كما يفسره - ليس إلهىّ المصدر، ولا وحى ولا نبوة ولا غيب فى عقيدته البعثيَّة، يمكن أن ينساب مع طبيعتها»(٢٩).

ويقول عفلق فى كتابه «فى سبيل البعث»: «يجب ألاَّ تنغلق القومية أو الدين ضمن إطارات من التحديد الضيّق، كما حاول علماء الكلام أن يفعلوا فى العصور السابقة، لا سيما وأن القوميَّة العربية ترفض بعث الأمور التى لم يعد لها جدوى من أمور الماضى»(٣٠). فهو كما تصرف فى مفهوم «القومية» تصرف فى مفهوم «الدين» ولعل القائد المؤسس بناء على ذلك اختار أن يكنى «أبا محمد» فهو مسلم بمقتضى التفسير البعثىّ للإسلام، وإن استمر على التثليث.

البعث والشريعة الإسلامية

إن حزب البعث يعارض آراء التقليديين والأصوليين معًا!! ولا يولى

أهمية للشريعة الإسلامية فى نظامه، ويرى أن تفسير الإسلام «أى من قبل العفلق» هو التفسير الصحيح، وأن نظرته إليه ترفض شيئًا اسمه «العقيدة أو الشريعة الإسلامية» كما يتجاهل النظم الإسلامية الأساسية كافّة، وكل ما بنى عليها، والآراء المتعلقة بها، ويرى أن الإسلام ليس العامل الوحيد فى تكوين أخلاق العرب الفرديّة، بل هو عامل من العوامل ذات الأثر السلبى - كما تقدم - وعمومًا فإن عفلق لا يأخذ من الإسلام أيّة فرائضَ أو نُظُمٍ أو سُنَنٍ اجتماعيَّة، ويرجع سائر المزايا التاريخيَّة فى المحيط العربىِّ إلى القوميَّة حسب تفسيره لها وفى المحيط الإسلامى إلى تأثير العرب، بحيث لا تنتفى صفة العروبة عن غير المسلمين ولا يستطيع المسلمون الآخرون من غير العرب أن يدَّعوا لأنفسهم أية ميزة تجعلهم فى مستوى العرب، فإن هم فعلوا، كانوا خونة لقيمهم الإسلاميَّة!!

أما بالنسبة لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فقد كتب القائد المؤسِّس كتيبًا فى ذكرى المولد النبوى مرة عنوانه «ذكرى الرسول العربى» وفيه نزع عن رسول الله صفتى النبوة والرسالة، واعتبره زعيمًا قوميّا، وكان عهده تجسيدًا لآمال العرب، وعلى كل عربى أن يجسد محمدًا، وقد لخص عفلق رؤيته فى النبوة والرسالة بذلك الشعار الذى لا يزال البعثيُّون يرفعونه باعتزاز: «كان محمد كل العرب، فليكن اليوم كل العرب محمدًا»!!

يتبين لنا من هذا العرض الوجيز أن مفهوم الأيديولوچية للبعث العربى

الاشتراكي إنما هو مسألة قومية مطوّرة، وأن هذه القومية - بمفهومها البعثي - هي العرق العربي ونقاؤه، ثم تخدم بقية عناصر المذهب البعثي هذا الغرض، ولكن نقاء العرق مسألة نسبية وظاهرية، وذلك يعني عدم إمكانية التحقق العلمي من صدق نقاء عرقٍ ما خاصَّة في بلد مثل العراق.

إن الحزب بالرغم من ضجيجه العالي حول التنظير والفكر والمعرفة والنظر الاستراتيجي، لم يتعظ بما أعقب عناد الرئيس القائد وتهوره الأرعن في احتلال الكويت، ونسي سائر الدروس التي كان المفروض أن يأخذها منها، بل لم يستطع الحزب تحديد الحد الأدنى الذي لا يستطيع النزول عنه في مجالات التنازلات، فعرض التنازل عن كل شيء، إلا عن كرسيه لكسب الأمريكان، ولم يدرك أن ذلك لا جدوى منه. لقد قاد حزب البعث العراق والعرب إلى البوار والهلاك والدمار، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فهل يستطيع من أوتي مثقال ذرة من عقل أو حكمة أو دين أو رشاد أن يؤيد حزبًا كهذا، أو يربط مصير أية مجموعة بشرية به؟ وهل فقد «أهل السنة والجماعة» صوابهم ليؤيدوا نظامًا كالذي أقامه حزب البعث في العراق أو قيادة مثل قيادته؟ إنَّني أرى مجرد الظن بأنَّ «أهل السنة» يمكن أن يفعلوا ذلك يمثِّل جهلاً بطبيعتهم وظلمًا كبيرًا لهم.

إن صدامًا وزمرته والملتفين حوله من البعثيّين قد ظلموا العراقيِّين بشموليّة عجيبة، ولم يعدلوا بينهم إلا في شيء واحد هو توزيع الظلم والاضطهاد على كل العراقيين بكل طوائفهم ومذاهبهم وقوميّاتهم وسائر

انتماءاتهم. وقد ثبت من عرضنا لنشأتهم ومعتقداتهم، أنهم لا دين لهم ولا مذهب إلا دين حزب البعث ومذهبيَّته، لذلك لم يبالغ شاعرهم حين قال:

آمَنْتُ بالبَعْثِ ربًا لا شَرِيكَ لَـهُ ... وبالعروبةِ دينًا مَا لَـهُ ثَانِى

بعد هذا العرض الموجز المركز عن حزب البعث ومذهبيته، هل يمكن أن يَدَّعى من له مسكة عقل أن هذا الحزب سنىٌّ، وأن نظام الحكم الذى أقامه ملطخًا بكل الطرق المشبوهة هو نظام سنىٌّ؟ على أية حال سيبرز بعد الشقة بين السنة وهذا الحزب أكثر حين نبين ذلك فى الصفحاتً التالية.

* * *

مفهوم أهل السنة والجماعة

هذا المفهوم مركب من فرعين، ولكنَّهما من أهم وأخطر ما جرى تداوله من مفاهيم فى علم الكلام والفرق والطبقات، وما إليها من المعارف الإسلامية وهما «أهل السنة» و«الجماعة». أما الأول «أهل السنة» فهو مركب من كلمتين «أهل» وهى مضاف و«السنة» وهى مضاف إليه. أما الأولى «أهل» فهى من «أهل الرجل»، وهم كل من يجمعه وإياهم مسكن واحد، ثم تجوَّزوا فيه فقيل: على من يجمعهم وإياه نسب واحد، وتعارف جمهرة المسلمين على إطلاقه فى أسرة النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - فهم الذين يقال لهم «أهل البيت» مطلقًا فى باب الفضائل. وفى باب الزكاة حصره جمهور الفقهاء فى «بنى هاشم وبنى عبد المطلب». وفى باب الدعاء والصلاة على النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - جعلوه شاملاً لكل من آمن به ورضيه نبيّا ورسولاً. وخصته الشيعة بـ «أهل الكساء»[٣١]. وخصه البعض بأزواجه فقط - صلى الله عليه وآله وسلم - نزولاً عند الذى يتبادر إلى الذهن عندما يقال «أهل الرجل» حيث يفهم منه زوجه وأسرته فى الاستعمال العرفيّ. ولأنَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣] جاءت بعد بيان جملة من الأحكام الشرعية المتعلقة بأزواج النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - ولأن العرب تقول: «تأهَّل فلان» تريد: تزوج.

وقوله ـ تعالى ـ لنوح ـ عليه السلام ـ حين سأل الله ـ تعالى ـ إنقاذ ولده من الطوفان: ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ [هود: ٤٦] فكأن لقب «أهل» يشتمل على الانتماء والتكافل المعنوى إضافة إلى صلة الدم والرحم. وقوله ـ تعالى ـ لنوح أيضًا آمرًا إياه بمن يحمل معه فى السفينة: ﴿ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ﴾ [هود: ٤٠]. وفى المعنويات أيضًا يقال: «فلان أهل لكل خير». وإضافة أهل إلى السنة تعنى أنهم صاروا للسنة النبوية من حيثيات مختلفة بمثابة «الأهل» للإنسان. وقال القرآن المجيد فى التقوى: ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ [الفتح: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ [المدثر: ٥٦].

أما المضاف إليه «السنة» فهو مفهوم تعدد وتنوع استعماله فى اللغة وفى الاصطلاح. ففى اللغة تطلق «السنَّة» على السيرة والطريقة حسنة كانت أو قبيحة. والسيرة والطريقة بمعنى واحد فى هذا الموضع. يقال: هذا فى سير الأولين، كما يقال: هذا فى طريقتهم. وهناك لفظ ثالث فى هذا المجال يقترب منهما كثيراً وهو «المذهب» فالسيرة والطريقة والمذهب تكاد تتفق معانيها فى هذا النوع من الاستعمال. وفى الحديث الشريف عن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أنَّه قال: **«من سن فى الإسلام سنة حسنة، فعمل بها بعده كتب له مثل أجر من عمل بها، ولا ينقص من أجورهم شىء. ومن سن فى الإسلام سنة سيئة فعمل بها بعده، كتب عليه مثل وزر من عمل بها، ولا ينقص من أوزارهم شىء»**(٣٢). وهنا يراد بقوله: «من سن» من ابتدأ عملاً وداوم عليه، وخص بعضهم لفظ «السنة» بالطريقة

المحمودة فقط ملاحظة للاستعمال العرفى «أهل السنة» الذى سنأتى إلى بيانه.

أما فى الاصطلاح فقد استعملت «السنة» فى القرآن بالمعنى اللّغوىّ نفسه «الطريقة» في نحو قوله ـ تعالى ـ: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [النساء: ٢٦]. فسنن الذين من قبلنا طرائقهم الحميدة، والقرينة ﴿ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ ﴾ وبيانه وهدايته ـ جل شأنه ـ تنصرف إلى المحمود دائمًا. وترد «السنة» فى القرآن كثيرًا بمعنى القانون الكونى والقانون الاجتماعى ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ [فاطر: ٤٣]، أى طريقته الحكيمة وعادته فى إرسال الرسل مبشرين ومنذرين لتقوم بهم الحجة على الناس فى السُّنَّة الثابتة. وهى إنزال العذاب والهلاك على الذين كذبوا رسل الله وأنكروا ما جاءوا به. وقد لاحظنا فى الحديث المتقدم استعمالها بمعنى «الطريقة» وفى هذه الآية جاءت بمعنى العادة، وفى كليهما نجد تلازمًا مع معنى الدوام والاستمرار. وهناك معان أخرى كثيرة للسنَّة واصطلاحات متنوعة فيها للفقهاء والأصوليّين والمحدّثين وعلماء الكلام والفرق والمذاهب. وقد استوعب جلها شيخنا «عبد الغنى عبدالخالق» ـ رحمه الله ـ فى كتابه المطبوع «حجية السنة» وأخذت ما يزيد على أربعين صفحة يستطيع الراغبون فى معرفة المزيد الاطّلاع عليه(٣٣). أما الذى يهمنا الوصول إليه ـ هنا ـ وتقريره ـ فى هذا الصدد ـ فهو المعنى الذى تعارف الناس عليه عندما يطلقون قولهم:

«أهل السنة» فهذا الإطلاق برز لتمييز عامة المسلمين وجمهرتهم وسوادهم الأعظم عن الفرق التى نشأت بعد العقد الأول من وفاة الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - حين برز «القدرية» أولاً وهم «نفاة القدر» ، ثم قابلتهم «الجبريَّة» ، ثم تمخضت الفتنة الكبرى عن «الخوارج» ، ثم «المرجئة» ، فكان الناس إذا أرادوا هذه الطوائف من المسلمين ذكروها بأسمائها . فإذا أرادوا الإشارة إلى كل من عداهم قالوا : «أهل السُّنَّة» ليتمايز الناس ، فيكون هناك «أهل البدعة» على الناس أن يحذروا تقليدهم وتبنِّى مقالاتهم ويبتعدوا عنهم ، وينضموا إلى السواد الأعظم - الذين هم «أهل السنة» . ولم تكن البدعة فى بادئ الأمر تطلق على غير أهل القدر والاعتزال ، فالتشيُّع كان قائمًا ، لكنَّه لم ينسب بادئ الأمر إلى البدعة ، حتى ظهر «النواصب» وقابلهم الغلاة الذين أطلق عليهم « الروافض» ، بعد معركتى الجمل وصفين بدأ البعض يستعملها فى مقابلة هذين الاتجاهين للغلاة فى مناصبة آل البيت وخاصة أمير المؤمنين على - رضى الله عنه - العداء وسبه على المنابر ، وقابل البعض ذلك بغلو مماثل فى رفض جمهرة الصحابة عدا نفرًا لا يتجاوز أصابع اليدين واتهام الصحابة عامة فى دينهم ، والتشكيك فى سلامته ، وصار الناس يدرجون هؤلاء مع القدرية والخوارج فى مقابل «أهل السنَّة» . وحين ساد الجهل ولم يعد الناس يدركون الفروق الدقيقة بين «النواصب» و«السنة» وبين «الرافضة» و«الشيعة» ساد ذلك العرف العامى الذى صار يطلق مفهوم «أهل السنة» فى مقابل «الشيعة» لكن إطلاقه التاريخىَّ ابتداءً كان فى مواجهة القدرية والخوارج ثم المعتزلة .

أما «الجماعة» فهى من الجمع، ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: ٩٩]، وقال تعالى ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ [التغابن: ٩]، ويوم الجمع هو المراد بقوله ـ تعالى ـ: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣]. و«جماعة» تقال للمجموع مثل جمع وجميع. فضم أناس متفاوتين إلى كيان أو رابطة يقال له «جمع وجمّاع». وتطلق على جمع الإنسان وجمع الآراء والأفكار، وقد اجتمعا معًا فى قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ [يونس: ٧١]، ومنه كذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣] قيل جمعوا آراءهم وتدابيرهم وجندهم وقواهم. وسمى يوم «الجمعة» بالجمعة لاجتماع الناس فيه للصلاة، وكان فى الجاهلية يسمى «يوم العروبة».

ومنه كذلك «إجماع العلماء» دليل من الأدلة الأصولية. وفى السنة النبوية وردت أحاديث كثيرة فى الأمر بشهود صلوات «الجمع والجماعات». كما وردت فى أحاديث كثيرة تنهى عن الفرقة والاختلاف، وتأمر بلزوم «الجماعة» عندها ـ أى عند الفرقة والاختلاف. لكن السنة النبوية نصَّت على أن «الجماعة» لا تكون «جماعة» حسب المفهوم الشرعى الذى قصدته فلا بد أن يكون لهم إمام. فاجتماع الناس وحده لا يكفى حتى يكون لهم إمام، فللجماعة عند المتكلمين دعامتان: **الأولى**: اجتماع الناس، **والثانية**: أن يكون هذا الاجتماع على إمام منهم يطبق الأحكام، ويجمع كلمة الأمة ويوحد بينها أو يؤلف بين قلوبها

ويرعى مصالحها ويحمى بيضة الأمة. ومن الأحاديث التى استندوا إليها حديث حذيفة الذى رواه الجماعة كلهم وفى آخره أن النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - قال له: «تلزم جماعة المسلمين وإمامهم» قال النبى - صلى الله عليه وآله وسلم -: «**فاعتزل تلك الفرق - كلها - ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك**»(٣٤). فلم يأمره بالتزام طاعة حزب من تلك الأحزاب أو طائفة أو أصحاب فرقة عوضًا عن الجماعة والإمام. والإمام عند متكلمى السنة: هو الرئيس المنتخب الذى تتوافر فيه شروط الإمامة التى عنوا بذكرها تفصيلاً فى كتب العقائد والفقه.

وما صار يعرف بكتب «السياسة الشرعية» التى نسب إلى ابن قتيبة منها كتاب «الإمامة والسياسة»، ثم كتاب الماوردى «الأحكام السلطانية»، وكتاب أبى يعلى فى «الأحكام السلطانية»، وكتاب ابن الأزرق «طبائع الملك»، وكتاب ابن تيمية فى «السياسة الشرعية»، ونحو ذلك(٣٥).

وقد اشتد الخلاف بين فقهاء الشيعة وفقهاء الجمهور حول ما إذا كانت «الإمامة» منصبًا دينيًا يرتبط بالنص، لا باختيار الناس، أو هى منصب دنيوى يخضع لإرادة الناس واختيارهم، ولكنه يكتسب تمام شرعيته من التزامه بالشريعة وتطبيقه لها.

وقد أضيفت «الجماعة» إلى المسلمين فقيل: «جماعة المسلمين». وحين رأى سبط رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - الحسن بن علىّ - رضى الله عنهما - الفرقة تعصف بالمسلمين وأن تشبث معاوية بن أبى

سفيان بالسلطة، وتذرعه بالاقتصاص من قتلة أمير المؤمنين عثمان - رضى الله عنه - لن يسمح بجمع كلمة الأمة، اجتهد وقرر التنازل لمعاوية، على أن يعيد معاوية الأمر إلى الأمة من بعده. فسمى العام الذى تنازل فيه الحسن - رضى الله عنه - لمعاوية بذلك الشرط بـ «عام الجماعة»؛ حيث أصلح الله بموقف السبط - رضى الله عنه - بين الطائفتين، وعادت كلمة الأمة به إلى الاجتماع من جديد.

من كل ما تقدم نستطيع أن نقرر بثقة أن تعبير «أهل السنة والجماعة» لم يكن متداولاً ولا معروفًا فى القرون الخيرة الثلاثة، ولم يتحول إلى اسم علم على جماعة من المسلمين إلا فى أواخر عهد الخليفة المتوكل، شأنه فى ذلك شأن كثير من المصطلحات الطارئة لاحقًا عبر تاريخ الإسلام. ولم يكن استخدام هذا التعبير قديمًا يشير إلى طائفة معينة من المسلمين؛ فالناظر فى تراث المتقدمين لا يجد لهذا التعبير استخدامًا فى مداولاتهم وأدبياتهم الباقية، فكيف تم نحت وتطوير هذا المصطلح؟ وكيف تمت تعبئة هذا التعبير بالمعنى الذى أريد له؟ وكيف تم تكريس هذا المفهوم فى إلزام الحجة ومساءلة الخارجين؟

أمة أم طائفة أم جماعة

تجدر الإشارة - ابتداءً - إلى أن التعبير الذى قدّمه القرآن الكريم فى وصف جماعة المسلمين هو «الأمة». والأمة اسم مشتق من الجذر (أمّ) - وهو كما قال الخليل: كل شىء ضم إليه سائر ما يليه. ويطلق هذا التعبير -

أيضًا ـ على كل ما كان أصلاً لوجود شيء أو تربيته أو إصلاحه أو مبدئه. و(الأمة) هي كل جماعة يجمعهم أمر ما؛ إما دين واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد ـ سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخيرًا أو اختيارًا[٣٦]. قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وعلى ذلك مضت سنة الأولين إلى أن بدأ ظهور الفرقة المختلفة إثر نشوب النزاعات السياسية والاختلافات الفكرية بين أبناء الأمة، فبدأت الألسنة والأدبيات تتداول أسماء الفرق كالخوارج، والشيعة، والمعتزلة، والصفاتية، وأهل الرأى، وأهل الحديث، وسواها مما استفاض فى كتب الملل والنحل والفرق والمذاهب تسميةً لكل منها بأهم المقالات التى اشتهرت بها، أو بموقف الجمهور منها نتيجةً لتلك المقالات.

إن الناظر فى ركام هذه الفرق فى كتب المتقدمين لا يجد لمصطلح «أهل السنة والجماعة» موقعًا، غير أنه يمكن تلمّس أثر بعض المعانى الداخلة فى تشكيل هذا المفهوم وتحسس جذورها من خلال النظر فى الأسماء والمنطلقات الفكرية عند مجموعة من الفرق. ومن ذلك ـ على سبيل المثال ـ استخدام الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز (١٠١هـ) تعبير «أهل السنة» [هكذا من دون لفظ «الجماعة»] فى رسالته التى ردّ فيها على القدرية والمعتزلة عندما قال: «وقد علمتم أهل السنة كانوا يقولون: الاعتصام بالسنة نجاة، وسينقص العلم نقصًا»[٣٧]. والظاهر من تصرفات المتقدمين فى كتاباتهم استخدام تعبير «أهل السنة» للإشارة إلى الفرق بين أصحاب

الحديث وأصحاب الرأى، ويضاف إلى ذلك بيان الفروق بين فرق الصفاتية. فهم بصنيعهم هذا يستثنون القدرية والخوارج والمعتزلة والمرجئة والشيعة. ولا زال إطلاق هذا التعبير فى ذلك الإطار إلى أن انحاز الإمام أبو الحسن الأشعرى (٣٢٤هـ) إلى صفوف «أهل السنة» من السلف ونصر مذهبهم على قاعدة كلامية، وفارق الاعتزال، فصار مذهبه مذهبًا منفردًا[٣٨]. وقد نال الأشعرى لذلك منزلة عظيمة، وصار له أنصار كثيرون يؤيدون مذهبه ردًا على المعتزلة بعد أن كانت حملتهم على الفقهاء والمحدثين قد بلغت مداها فيما عُرف تاريخيًا بمسألة «خلق القرآن»[٣٩]، حتى إذا استخلف المتوكل أبعد المعتزلة عن حظوة الملك، وفتح الأبواب لخصومهم. وبذلك لقى الأشعرى من الحكام تأييدًا ونصرة؛ فردّ على المعتزلة، وبث أنصاره فى الأقاليم يحاربون خصوم الجماعة ومخالفيها، ولقّبه أكثر علماء عصره بـ «إمام أهل السنة والجماعة»[٤٠]. وقرّر طريقته الكلامية جماعة من المحققين مثل: القاضى أبى بكر الباقلانى (٤٠٣هـ)، والأستاذ أبى إسحاق الإسفرائينى (٤١٨هـ)، والأستاذ أبى بكر بن فورك (٤٠٦هـ)، وإمام الحرمين الجوينى (٤٧٨هـ)، وسموا رأيه بمذهب «أهل السنة والجماعة»[٤١]. وابتداء من تلك المرحلة بدأ مصطلح «أهل السنة والجماعة» ينتشر بين العامة والخاصة، ويأخذ صفة اللّقب لجماعة من الأمة محدّدة وموصوفة وظهر بوضوح الفرق بينهم وبين غيرهم فى مجموعة من كتب العقائد والفرق، منها كتاب «الفَرْق بين الفرق» لأبى منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادى الإسفرائينى (٤٢٩هـ) حيث أفرد الباب الخامس من كتابه لذكر أوصاف ما سماه بـ «الفرقة الناجية» والتى

قصد بها «أهل السنة والجماعة»، وعنون للفصل الأول من الباب بـ «بيان أصناف أهل السنة والجماعة»، وتكرر استخدامه لهذا التعبير بشكل يدل على إرادته لذاته. ولتحديد المراد بهذا اللقب بدقة ذكر أن أهل السنة والجماعة ثمانية أصناف من الناس:

١ - صنف أحاطوا علمًا بأبواب التوحيد والنبوة، وأحكام الوعد والوعيد، والثواب والعقاب، وشروط الاجتهاد، والإمامة والزعامة، وسلكوا فى هذا النوع من العلم طُرق الصفاتية من المتكلمين الذى تبرءوا من التشبيه والتعطيل، ومن بدع الرافضة والخوارج والجهمية والنجارية وسائر أهل الأهواء الضالة.

٢ - الصنف الثانى منهم: أئمة الفقه من فريقى أهل الرأى وأهل الحديث من الذين اعتقدوا فى أصول الدين مذاهب الصفاتية فى الله وفى صفاته الأزلية وتبرءوا من القدر والاعتزال... ويدخل فى هذه الجماعة أصحاب مالك والشافعى والأوزاعى والثورى وأبى حنيفة وابن أبى ليلى وأصحاب أبى ثور وأصحاب أحمد وأهل الظاهر وسائر الفقهاء الذين اعتقدوا فى الأبواب العقلية أصولَ الصفاتية، ولم يخلطوا فقههم بشىء من بدع أهل الأهواء.

٣ - الصنف الثالث منهم: هم الذين أحاطوا علمًا بطرق الأخبار والسنن المأثورة عن النبى - عليه الصلاة والسلام - وميّزوا بين الصحيح والسقيم منه، وعرفوا أسباب الجرح والتعديل، ولم يخلطوا علمهم بذلك بشىء من بدع أهل الأهواء الضالة.

٤ ـ والصنف الرابع منهم: قوم أحاطوا علمًا بأكثر أبواب الأدب والنحو والتصريف، وجروا على سَمت أئمة اللغة كالخليل، وأبى عمرو بن العلاء، وسيبويه، والفراء، والأخفش، والأصمعى، والمازنى، وأبى عبيد، وسائر أئمة النحو من الكوفيين والبصريين، الذين لم يخلطوا علمهم بذلك بشىء من بدع القدرية أو الرافضة أو الخوارج. ومن مال منهم إلى شىء من الأهواء الضالة لم يكن من أهل السنة، ولا كان قوله حجة فى اللغة والنحو.

٥ ـ والصنف الخامس منهم: هم الذين أحاطوا علمًا بوجوه قراءات القرآن، وبوجوه تفسير آيات القرآن وتأويلها على وفق مذاهب أهل السنة دون تأويلات أهل الأهواء الضالة.

٦ ـ والصنف السادس منهم: الزّهّاد الصوفية الذين أبصروا فأقصروا، واختبروا فاعتبروا، . . . وجرى كلامهم فى طريقى العبارة والإشارة على سمت أهل الحديث دون من يشترى لهو الحديث. . .

٧ ـ والصنف السابع منهم: قوم مرابطون فى ثغور المسلمين فى وجوه الكفرة، يجاهدون أعداء المسلمين، ويحمون حمى المسلمين، يذبّون عن حريمهم وديارهم، ويظهرون فى ثغورهم مذاهب أهل السنة والجماعة. . .

٨ ـ والصنف الثامن منهم: عامة البلدان التى غلب فيها شعار أهل السنة دون عامة البقاع التى ظهر فيها شعار أهل الأهواء الضالة. وإنما أردنا

بهذا الصنف من العامة الذين اعتقدوا تصويب مقالات علماء السنة والجماعة فى أبواب العدل والتوحيد، والوعد والوعيد، ورجعوا إليهم فى معالم دينهم، وقلّدوهم فى فروع الحلال والحرام، ولم يعتقدوا شيئًا من بدع أهل الأهواء الضالة، وهؤلاء الذين سمّتهم الصوفية «حشو الجنة»[٤٢].

تابعه على منهجه - بعد ذلك - أبوالمظفر طاهر بن محمد الإسفرائينى (٤٧١هـ) فى كتابه الموسوم بـ «التبصير فى الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين» وذكر فيما ذكر من طرق تحقيق النجاة «لأهل السنة والجماعة» فى العاقبة أنهم حريصون أكثر من غيرهم على متابعة أخبار الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - وسننه، ولهذا سمّوا «أصحاب الحديث»، وسمّوا «أهل السنة والجماعة»، واحتج لرأيه بالحديث الوارد فى «الفرقة الناجية» والذى جاء فيه لفظ «الجماعة»[٤٣]. ونص الحديث هو: «عن معاوية ابن أبى سفيان أنه قام فينا فقال: ألا إن رسول الله ﷺ قام فينا فقال: **ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين؛ ثنتان وسبعون فى النار وواحدة فى الجنة - وهى الجماعة**»[٤٤]. والجماعة هى السواد الأعظم من أمة الإسلام - حسب اصطلاح الفقهاء.

كما أن لفظ «الجماعة» قد جاء فى أحاديث أخرى هى **«يد الله مع الجماعة، ولا نبالى بشذوذ من شذ..»** وقوله: **«من خرج من الجماعة قيد شبر فقدخلع ربقة الإسلام عن عنقه»** وقوله **«من خرج من الطاعة، وفارق الجماعة مات ميتة جاهلية»** وقوله: **«ثلاث لا يغل عليهم قلب المؤمن: إخلاص العمل**

لله تعالى، والنصح لأئمة المسلمين، ولزوم الجماعة، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم»، وقوله: **«من سره أن يسكن بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة، فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد»**. وقد أخرج الترمذى عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال: خطبنا عمر بالجابية فقال: يا أيها الناس إنى قمت فيكم كمقام رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فينا، فقال: **«أوصيكم بأصحابى ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يفشو الكذب حتى يحلف الرجل ولا يستحلف، ويشهد الشاهد ولا يستشهد، ألا يخلونَّ رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان، عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد، من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة»**(٤٥).

من ذلك ـ كله ـ نستخلص أن مصطلح «أهل السنة» تم تداوله والتعبير به قديمًا فى مقابل مخالفيهم الذين أطلقوا عليهم «أهل البدعة»، وهم الذين تكلموا فى مسائل الصفات والقدر وحكم مرتكب الكبيرة وغيرها. ثم اتسع هذا المصطلح ليشمل «أهل الحديث» و«أهل الرأى» من الفقهاء والمحدثين ومن سار على نهج السلف فى إثبات العقائد. ثم انفتح المصطلح والمفهوم ـ كلاهما ـ بعد انتصار مذهب الأشاعرة ومن سار سيرهم ليقف فى مواجهة كافة الفرق الأخرى، وبعد ذلك تم تكريس مصطلح (أهل السنة والجماعة) للتعبير عن «الفرقة الناجية» وحدها واستبعاد ما سواها من حظيرة النجاة، فتعمقت الهوة واتسعت الفجوة بين الفرق بعد أن كان الاختلاف قديمًا لا يفسد للودّ قضية ـ كما يقال ـ !! لكنَّه مزّق وحدة الأمة هذه المرة، وعرَّضها للانهيار عدة مرات ليس آخرها هذا الانهيار الخطير الذى نعانيه اليوم.

الأمة والافتئات عليها

منذ أن انفرط عقد الأمة، وتفككت وحدتها، وتمزَّق كيانها السياسىّ، وتبعه بعد ذلك كيانها الاجتماعىّ، ثم الاقتصادىّ، وكل تراثها وقيمها المعنويَّة والماديَّة صارت نهبًا لمن يشاء، وكلأً مباحًا لمن يريد.

فلقد كانت الأمَّة المسلمة حقيقة تاريخيَّة اجتماعيَّة، وكيانًا سياسيًّا تمثِّل الوعاء الذى يحتضن كل الكيانات الجماعيَّة الفرعيَّة بأمومة وحنان، وإذا بها بعد التفكُّك تصبح نهبًا لتلك الكيانات الفرعيَّة الصغرى مهما كانت - وكل من تلك الكيانات الفرعيَّة سواء أكانت فرقًا أم طوائفَ أم أقاليمَ، أم كيانات هزيلةً أم أحزابًا، أم أفرادًا فى كهوف، كل أولئك صاروا يدَّعون تمثيل الأُمَّة، والنطق باسمها، والتعرُّف نيابة عنها، لغياب المرجعيَّة التى يمكن أن تجتمع عليها الكلمة ولو فى حدودها الدنيا، فالافتئات من معانيه - لغة - :

صرفٌ عن شىء. والمفتات على الأمَّة إنسان صَرَفَ صلاحيَّاتها أو مسئوليَّاتها عنها، وحوَّلها إفكًا وزورًا إلى نفسه أو حزبه، أو طائفته، أو زمرته، وفى ذلك إفك وافتراء عليها، وهل «الإفك» إلاَّ صرف الشىء عن وجهه؟!

إنَّ الأمَّة شخصيَّة معنويَّة تحتضن هُويَّة ـ الجماعة ـ الأمَّة، وخصائصها الذاتيَّة وسائر مقوماتها، وهى التى تمثّل نفسها، وإذا أرادت أن تختار من يمثّلها بأىّ معنى من معانى التمثيل، فهناك طرق مشروعة تَكلُ بمقتضاها إلى من تختاره عن رضًا منها، ومشورة بعض ما يهمُّها للقيام به ـ على أن يكون ذلك الشخص أو الهيئة مسئولة أمام الأمَّة فى الدنيا، وأمام الله فى الآخرة. والافتئات على الأمَّة من الجرائم الكبرى العامَّة لا يسوِّغ ارتكابها تهافت بعض الحاكمين، وبعض الفئات على مقارفة هذه الجريمة. فالنطق باسم الأمَّة ينبغى أن يبقى فى منأى عن التلاعب السياسى والطائفىّ الحزبىّ الفئوى لتبقى الأمَّة المحضن الذى يأوى الجميع إليه فيجدون فيه أنفسهم وشخصيَّتهم، وخصائصهم، وهُويَّتهم المشتركة التى لا بقاء لهم إذا خسروها.

إن ظاهرة «الافتئات» على الأمَّة قد شاعت وتفشَّت فى الآونة الأخيرة؛ وما لم يقف عقلاء الأمَّة وعلماؤها ومفكروها ومثقفوها وقفة رجل واحد؛ فإنّ «مفهوم الأمَّة» نفسه فى إطاره المفاهيمى والنظرى قد ينهارَ ـ لا سمح الله ـ وآنذاك لن يكون سهلاً إعادةُ بناء المفهوم ولو فى إطاره المفاهيميّ النظرىّ هذا.

عودة إلى الخلاف بين الشيعة والسنة

إنّ هناك أمة مسلمة، تم تشكيلها بوحى إلهىّ ومنهج قرآنىّ حتى غدت

خير أمة أخرجها الله - تبارك وتعالى - للبشريّة نموذجًا ومثالاً تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتؤمن بالله . وعلى هذا الوحى بنت قيمها العليا الحاكمة، وهى : «التوحيد، التزكية، العمران» ثم مقاصدها الشرعيَّة بمستوياتها المتعدِّدة من ضروريّات وحاجيّات وتحسينيّات تستند - كلّها - إلى دعائم الوفاء بالعقود، وحفظ العهود، والقيام بالعدل، وتحقيق القسط، وأداء الأمانات إلى أهلها، والتسوية بين الناس، والقيام بواجب الاستخلاف، وعلى هذه الدعائم استطاعت أن تؤسس حضارة عدّها مؤرخو الحضارات أهم حضارة شهدتها الأرض من حيث إنسانيَّتها، وانفتاح نسقها، وتجاوز حالات الغرور والاستعلاء الذاتىّ أو العلو فى الأرض، والتمهيد لعالميَّة تقوم على قيم الهدى والحق، والعدل، تنظر للإنسانيَّة - كلّها - على أنّها أسرة واحدة ممتدة انحدرت - كلها - من أبوين خلق الله - تبارك وتعالى - منهما كل البشر . وأن تكوينه - جلَّ وعلا - البشر شعوبًا وقبائل ذات ألوان مختلفة، ومواقع جغرافية متباينة، ولغات وألسن متعددة إنما كان ذلك - كله - لتحقيق التعارف والتآلف، ثم التعاون على إعمار هذه الأرض وإقامة الحق والعدل فيها ونشر الخير فى أقطارها، وتجنيبها كل عوامل الفساد والاضطراب وسفك الدماء، فتلك مهمة هذا النوع البشرىّ، ومن أجلها استُخلف فى الأرض، وتلك هى الأمانة التى اؤتمن عليها وبها .

ولقد أوضحت الرؤية الكليَّة لهذه الأمة أنَّ مهمة البشريَّة - كلها - هى مهمة واحدة هى «الاستخلاف» فى هذه الأرض ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ

إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠]، وحمل الأمانة فيها ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، فالإنسان المستخلف هو المؤتمن بما منحه الله من عقل وطاقات وحرية واختيار على كل ما فى الأرض وما عليها من موجودات بالإضافة إلى الأرض نفسها ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود: ٦١] . فالإنسان فى رؤية الإسلام الكلية هو المسئول عن حماية كل ما فى الكون، ووضعه باتجاه الغاية التى خلق الحقُّ الخلقَ من أجلها، ثم قيادة قافلة التسبيح للحق - تبارك وتعالى. تلك القافلة التى تنظم كل مخلوق ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٨]، ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقد قامت هذه الأمة بأمر الله وعليه فترة من الزمن، وأقامت العمران الإسلامى على ذلك، ثم طال عليها الأمد وأصابها ما أصاب الأحياء كلها ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١٤٠]. فتراجعت حضارتها، ولم تواصل مسيرتها المتقدمة تلك، فلم تستطع بعد ذلك المحافظة على وحدتها، ولا البقاء فى موقع «الخيرية» الذى احتلته، ولا الاستمرار فى موقع الوسطية الذى اختيرت له، ولا المحافظة على منصب الشهادة الذى انتدبت له؛ فخسر العالم بذلك خسارة كبرى لم تستطع البشرية تعويضها حتى اليوم، فقد خسرت البشرية بتراجع «أمة الإسلام»

الشاهد عليها الذى يمكن أن يحسم بحضوره وشهادته ما يقع بين البشرية من خصومات واختلافات ويمنع ما يمكن أن يقع فيها من بغى وظلم وعدوان، ويريها الحق حقًا لتتبعه، ويريها الباطل باطلاً لتجتنبه، ولقد خسرت بتراجعها الشاهد الذى يقوم على حماية القيم، وحراسة الأخلاق والشيم والمحافظة على تراث النبيين، وعلوم المرسلين فيبين للناس ما نزل إليهم، والذى هم فيه يختلفون.

كما خسرت البشرية بتراجع «أمة الإسلام» النموذج الحى الذى يمكن أن تقتدى به، وتهتدى به سائر الأمم، لتقوم كونية البشرية وعالميتها حين تقوم على قيم الحق والهدى والنور والتوحيد والتزكية والعمران، لا على مقاييس الاستكبار والاستعلاء فى الأرض والاستعمار الذى يمارسه القادرون ضد المستضعفين فيضلونهم عن السبيل بقيم زائفة موهومة، وخرافات سموها زورًا وبهتانًا «نبوءات» وأضغاث أحلام نَعَتوها بأنها «إلهامات» وموروثات وثنية «هلينية وإغريقية ورومانية» اعتبروها أعلى ما وصلت إليه البشرية، وأهم ما أنجزته الإنسانية!! أما تراث الأنبياء والمرسلين فهو عندهم ميدان للتسلية وتجنيد العامة، واستنزاف أموالهم وطاقاتهم، وأشغالهم بالذى هو أدنى فى نظرهم. تلك بعض ما خسرته البشرية بتراجع «أمة الإسلام».

إن البشرية قد فقدت منذ ذلك الحين القطب الهادى فى ظلمات البر والبحر، والشاهد الأمين، والهادى والرائد الصادق الأمين. أما خسارة «أمة الإسلام» لنفسها وفى نفسها فهى أمر يجل عن الوصف،

ولـو سودت فيـه آلاف الصـفحـات لما بلغت منه نُصَيْفَه أو ثلثه، فـمن يسهل عليه وصف ما حدث فى هذه الأمة من فتن وبدع وانحرافات أدت إلى تفريطها فى تراث النبيين والمرسلين الذى جدده محمد ابن عبد الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وأورثه هذه الأمة ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [فاطر: ٣٢].

وإذا كان الله قد ضرب لبني إسرائيل مثلاً فى قوله ـ تعالى ـ: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الجمعة: ٥]، فإن المسلمين ـ للأسف الشديد ـ قد حملوا القرآن ثم لم يحملوه إلا فترة من الزمن، ثم سارعوا إلى هجره وتخلوا عن حمله، وتدبره وتعقله وتفهمه والتفكر فيه وترتيله وتلاوته حق تلاوته، فذلك شأن اختص به عصر رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وهو يبلغ ما أنزل إليه، ويجمع أصحابه على آياته ويبينها لَهُمْ قولاً وفعلاً وتقريراً ويحولها إلى سلوك عملى وممارسة حياتية يحيون بها، ويعيشون عليها. فأى مثل يمكن أن يضرب لأولئك الذين حملوا القرآن؟ وأين التوراة من القرآن الحامل لتراث النبيين كافة، والنازل ليكون هدى للبشرية كافةً فى سائر عصورها وكل أماكنها؟

إن المثل الذى ضرب لبنى إسرائيل أقل بكثير مما تستحق هذه الأمة أن يضرب لها مثلاً؟ فقد حملت هذه الأمة القرآن ثم لم تحمله، وتجاوزته إلى ما ظنت ـ واهمة ـ أنه أيسر منه وأسهل، وأبعد عن الإجمال والاحتمال

والإطلاق والتعميم. كما أن غيره يكون الخطأ فى فهم دلالته، والمراد به خطبه أقل خطرًا، وأبعد عن المسئولية. أما الخطأ فيه فخطبه أخطر وأكبر، ومهما كانت تلك التعلاّت فإنه ما من سبب أو تعلة يمكن أن يقبل لتسويغ هجر كتاب الله ـ تعالى ـ أو إهماله، أو اتخاذه عضين، أو مجرد شواهد مؤيدة لما يذهب إليه الفهم البشرى سواء أكان فهم مجتهد أم مقلد.

الفصام بين الأمة ومصدر هدايتها

فى منتصف القرن التاسع عشر بدأت الحركات الإصلاحية تفكر فى مدى إمكان استعارة بعض البرامج والوسائل الإصلاحية من أمم أخرى، فكان ذلك مؤشرًا إلى بداية حال الفصام بين الأمة المسلمة، ومصادر تكوينها التاريخى وبنائها، واستمرت الفجوة تتسع حتى بلغت مداها، عندما بدأت مرحلة استيراد الحلول والأفكار، بل والمبادئ والنظريات، وربما العقائد والمذهبيات من الحضارات والأمم الأخرى، وبدأت تتغير الرؤية الكلية والقواعد العقيدية، والمبادئ الأساسية، وأضْفيَت ثياب الشرعية على ما استعير من أمور لم يكن من السهل أن تكتسبَ الشرعية، ولا الفاعلية المرتقبة. فأدى ذلك إلى استمرار حالات الفشل والتراجع. وجاءت محاولات «التحديث والتنمية» لتجد أوضاعًا غير مهيئة بشكل طبيعى للتحول فقامت دول قومية وإقليمية بشكل عشوائى وغير طبيعى فاقتسم تاريخ الأمة ومواقعها الجغرافية وتراثها بشكل قسرى عشوائى، وأجْرِيَت عمليات جراحية فاشلة فتهدمت بناها التحتية والروابط الدينيةَ، وتم استبدالها بالروابط الحزبية والمؤسسات العسكرية

فصارت محاولات الإصلاح والنهوض تبدو وكأنها مفتعلة منبتة لا تزداد حالة الأمة عليها إلا سوءاً، ولا يزداد أبناؤها إلا تفرقًا وانقسامًا وانشطاراً، وهنا صارت عمليات «الافتئات» على الأمة ظاهرة طبيعية يمارسها الكثيرون. فالأمة لم يعد لها وجود بوصفها «أمة» بل أرزت إلى ضمائر أفراد قلائل وفئات يسيرة من أولئك الأوفياء لتاريخ الأمة وتراثها الحريصين على إعادة بنائها، وجمع كلمتها، والنهوض بها، ومواجهة التحديات التى أدت إلى تراجعها أملاً فى وضعها على سبيل النهوض ثانية، لكن حجم التحديات واستبسال الأزمات كانا على الدوام يحولان دون تحقيق تلك الآمال بحيث يتحول ذلك إلى نوع من الإحباط. ثم جاءت موجات الدكتاتوريات العسكرية التى أدت إلى مزيد من التمزيق والتفرق والإحباط والتفكيك، فتنوعت عمليات «الافتئات» على الأمة ما بين افتئات النظم المستبدة التى استدرجت الأمة إلى العديد من المهالك. وافتئات التنظيمات والفئات والأحزاب المنبتة المنفصلة عن جسم الأمة التى فرقت كلمتها، وأوجدت كثيراً من عوامل التمزق والصراع والنزاع بين فصائلها، وكثيراً ما تنصب نفسها ناطقًا باسم الأمة وممثلاً شرعيًا لها رغم أنفها.

وهكذا وجدت بقايا الأمة نفسها فى حالة ضياع نستطيع أن نجزم بأنها لم تمر بها من قبل. ففى الحروب الصليبية كانت ما تزال أمة، واختلافات الساسة والقادة وصراعاتهم مع كل ما لها من سلبيات، لم تستطع اقتلاع مفهوم الأمة، فقد بقى حيًّا فى ضمائر السواد الأعظم وفى وعى

الجماهير، وعقول علماء الأمة وزُهَّادها وعُبَّادها وجمهرة فصائل أبنائها، وما من شك فى أن غزوات الصليبيينَ كانت تستهدف استئصال المسلمين واستيطان ديارهم والقضاء على وحدة أمتهم ومقوماتها.

وكذلك غزو المغول التتار كان غزواً ساحقًا مدمراً كاد يهلك الحرث والنسل، ونال من الأمة نيلاً عظيمًا لم يقتصر على هزيمتها عسكريًا وسياسيًا، بل أحدث تدميراً وخرابًا نفسيًا هائلاً. وفى كلا النوعين من الغزو وجد الغزاة بعض المنافقين والمنهزمين نفسيًا يتعاونون معهم، ويدلونهم على عورات أمتهم، لكن ذلك ـ كله ـ لم يقض على مفهوم الأمة فى ضمائر المؤمنين، ولم يغير خصائصها، فبقيت جسداً واحداً، وإن كانت فى حالة مرض واعتلال.

إن الباحث فى التاريخ على المستوى الفردى قد يجد بعض النماذج المماثلة لبعض النماذج الساقطة تاريخيًا، لكن من الصعب جداً أن يجد أعداداً كبيرة أو طوائف، أو أحزابًا أو أقاليم أو فئات تنزع منها قيمها، ويُدمر ولاؤها لأمتها، وتتنازل عن كرامتها، وتبيع الغالى والنفيس بدون ثمن أو بثمن بخس من كرسى بلا قوائم، أو لقب بلا معنى، أو وظيفة بلا مضمون... أو.. أو.. ثم تستورد من القيم ما لا قيمة له، ومن النظم ما هو تخريب أو التخريب المحدد أهون منه، وتتحالف مع العدو وتخضع له، وتجفو الأخ والقريب، وتتنكر له، وتهدر كرامة الوطن، وتنتهك حرمة المواطن حتى يستهين به الجميع، ويحتقره العموم، وترهن الموارد عند أعتى المرابين ليستولى عليها، وتستخسر فى الأهل أى جزء

منها. هذه النماذج مما ذكرنا لم تشهدها ساحات المسلمين إلا بعد أن أنكرت نفسها، وتنكرت لهويتها، وفرطت فى وحدتها، وأساءت فهم دينها، وفرقت دينها، وصارت شيعًا وطوائف، فلم يعد القرآن ولا رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ منها فى شىء. نسيت الله فنسيها، وتجاهلت دينه فأنكرها. فآلت إلى ما آلت إليه من تشرذم وتشتت وفرقة وهوان، ففقدت عامتها فاعليتها، وفقدت نظمها شرعيتها. فهل يستغرب أن تستباح ديارها، ويذل إنسانها، وتُنْتَهَكَ حرماتها بشكل لا مثيل له فى تاريخها ولا تاريخ غيرها؟ أتدرون ما سبب ذلك؟

إن سبب ذلك أنها تخلت عن التوحيد، وتنكرت للوحدة، وأقبلت على العدو وتنكرت للأهل ففقدت القدرة على التأليف بين قلوبها. وإذ فقدت ذلك انهار البناء بعدها لبنة بعد أخرى حتى بلغنا هذا الحال.

لقد تركنا رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، وحذرنا وأنذرنا ـ وهو البشير النذير ـ ألاَّ نزيغ عنها، إذ لا يزيغ عنها إلا هالك، فما الذى كان منا؟ بدأنا الزيغ عنها قبل أن يبلى كفن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وتواصل الانحراف، ولم تتوقف الانحرافات، كما لم تتوقف محاولات التجديد والإصلاح، ويبدو أن عوامل الهدم كانت أقوى من محاولات إعادة البناء، فوجدنا أنفسنا ـ الآن ـ فى مطلع القرن الخامس عشر الهجرى (الواحد والعشرين الميلادى) أذل من على وجه الأرض، تحتل روسيا أفغانستان، فلا تخرج منها إلا بمساعدة الأمريكان. ثم يتقاتل المجاهدون!! حتى كاد بعضهم يفنى

بعضًا، وتحولت حواضر أفغانستان إلى خراب؛ لأن الأمريكان يعرفون أنهم قدَّموا للمجاهدين أسلحة لا بد أن تُحَطَّمَ قبل دخولهم فاتحين فتزعج عساكرهم، واستمر قتال العبيد حتى دخول السيد، وصارت البلاد التى شهدت تلك الصراعات العجيبة بين السنة والشيعة والصوفية والسلفية والشمال والجنوب والطلاب والمشايخ، نموذجًا لأولئك الذين يخربون بيوتهم بأيديهم، فلم تلبث البلاد أن أثخنت بالجراح، وقارب الجميع حالة التفانى، وفنى السلاح الذى أدخلته إليهم أمريكا لهزيمة روسيا، ثم دخلت أمريكا لتحمى تماثيل بوذا، ولتحمى نساء ورجال أفغانستان من تطبيقات شرعية تنتهك حقوق الإنسان!! وحين شعرت بأن من المفيد أن تضع واجهة أفغانية أتت ببعض الأفغان الذين يحملون الجنسية الأمريكية من أولئك الذين خدموا إبان الجهاد!! ونصحتهم ببيع مطاعمهم فى بوسطن ومريلاند أو التنازل عنها أو تأجيرها؛ لأن لهم دورًا أهم من إدارة مطعم يقدم الطعام الأفغانى الرخيص واللذيذ للأمريكان!! فإذا بـ «اللوياجركا» ثم الحكومة المؤقتة... ثم.. ثم.. وأخرج العم سام لسانه للروس ليقول لهم: هل فهمتم كيف يكون العمل؟

ولا نريد أن نتحدث عن الصومال ولا عن غيرها، فالدائرة الساخنة - الآن - هى الساحة العراقية، وهى ساحة لنا بها شىء من الخبرة. وهنا لا بد أن أؤكد على القارئ ضرورة الرجوع إلى القسم الأول من هذه الدراسة؛ لأن فيه تقدمة مهمة وتوطئة لا يستغنى عنها لما نحن بصدده،

فقد عالجنا فيه موضوع السنة والشيعة، وألمحنا بقدر كاف إلى الصراعات الطائفية بين السلاچقة الأتراك، وهم من المنسوبين إلى السّنة، والبويهيين الديلم، وهم من المنسوبين إلى الشيعة. ثم الصراع الذى لم يكن أقل من صراع السلاچقة والبويهيين، وهو الصراع بين العثمانيين والصفويين. وأوضحنا كيف شاب ذلك الصراع التاريخ العراقى كله، وتوارثت الأجيال عبر تاريخ العراق تلك التركة الثقيلة، ولم تستطع الأحزاب ولا الجماعات ولا المرجعيات دينية كانت أو علمانية إنقاذ الأجيال الطالعة المسكينة، ولم تستطع الفكاك منها حتى يومنا هذا نتيجة تلك الصراعات التى تطاولت واستمرت قرونًا كثيرة من غير أن تجد من يقوم بتفكيك التراث المريض الذى جعلها لا تخرج من أزمة إلا لتدخل فى أخطر منها.

إن هذا التراث الطائفى فى حاجة إلى جامعات ومراكز بحوث تكرس كل جهودها للتخلص من آثاره وإعادة بناء النفسية المسلمة والعراقية خاصة، ومن المؤسف أن العكس من ذلك قد حدث فقامت الطائفية السياسية بإعادة بنائه وتجديده حتى آلت الأمور إلى جاهل مغرور مثل «صدام حسين» وزمرته، الذين سرعان ما أغروا بشن حرب على إيران شملت العراقيين ذوى الجذور الإيرانية ليحيى التراث الطائفى الموروث ـ كله ـ وليعيد إنتاجه بلغة معاصرة، وليضيف إليه؛ لأن الرجل قد بنيت عقليته وفقًا لفلسفة عفلق التى تقوم على «النقاء العرقى»، فالإيمان بالنقاء العرقى قاد هؤلاء إلى تهجير عراقيين لمجرد أن لهم أصولاً إيرانية بقطع النظر عن أن تكون هذه الأصول قريبة أو بعيدة، وفى ذات الوقت يدعون

للعودة إلى العراق صهاينة هاجروا إلى الدولة العبرية أول تأسيسها، وخاضوا سائر حروبها ضد العرب!! فتأمل. لقد بقى أهل السنة من عهد المتوكل حتى اليوم يؤمنون أنهم «الفرقة الناجية» وكل الفرق الأخرى فى النار. وبقى الشيعة من عهد الإمام علىّ - كرم الله وجهه ورضى الله عنه - حتى اليوم يرون أن جميع الفرق هالكة وهى فى النار إلا هم، فهم «الفرقة الناجية»، وإلى مثل ذلك ذهبت الفرق الأخرى، فما من فرقة إلا وترى أنها «الناجية» وأنها على ما عليه رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وآل بيته، وكل ما عداها هالك. وتكونت ثقافة مريضة واسعة راسخة حول هذا المفهوم، فرقة ناجية والجميع هالك، فرقة على الحق والكل على الباطل، فرقة تملك الحقائق - كلها - وفرق ليس لها إلا الباطل، فرقة فى الجنة وسائر الفرق فى السعير، وقد غرست هذه الثقافة فى نفوس العامة حتى تحولت إلى جزء مهم من الدين، والممارسات الدينية اليومية، وكرّس هذه الثقافة وقوّاها تراث كلامى وفقهى كثير ولسان مقال أو حال الجميع يقول: «من لا يؤمن بكفر مخالفينا فهو منهم» فماذا يمكن أن يتبقى من مفهوم الأمة وقد بلغت هذا المستوى؟

إن العالم - كله - ومنه الأمريكان، بمن فيهم أسر المعذبين الجناة فى سجون العراق قد استنكروا بكل ما أوتوا من طاقات للاستنكار والشجب والرفض والاحتقار، وأعلنت أسر بعض الجلادين الأمريكان تَبَرُّؤَها مما فعل أبناؤها، ولم يهوِّنْ من شأن ما حدث فى السجون العراقية إلا العراقيون من بعض المعارضين للنظام السابق الذين هانت عليهم

أنفسهم، وهانت عليهم سائر القيم العراقية والعربية والإسلامية بل والإنسانية، فهرعوا يواسون الجناة، ويخففون عنهم، فذكرونا بذلك الذى ذهب إلى قاتل شَعَرَ بشىء من ندم على ارتكابه جريمة قتل، فإذا بذلك «المرقع» يقول لّلقاتل: « لاينبغى لك أن تتأسى وتأسف لقتله فإنه قد اعتدى على جنابكم، حيث لطخت دماؤه النجسة عند قتله ثيابكم الطاهرة»!!

ولقد قال عراقيون كثيرون ما هو أشد كثيراً من ذلك، ومنهم مسئولون كان عليهم أن يتواروا خجلاً، لا عن الساحة السياسية الحقيرة فحسب، بل عن ساحة الحياة نفسها، ولكن «اللى اختشوا ماتوا».

لقد قال أحد أولئك المتهاونين فى أعراضهم فى إحدى الفضائيات: «لا تعظموا هذا فإن ما كان يحدث فى السجون فى عهد صدام لا يقل كثيراً عما حدث فى عهد الأمريكان.. وعملائهم، فلماذا قُبل من العراقيين ويُرْفَضُ من الأمريكان؟» وزاد على ذلك: «إن التعذيب لم يشمل سائر السجناء، بل هى حالات معدودة». أى تعليق يمكن أن يقال فى مقابل هذه القذارة، وأى تحليل يمكن أن يفسر لنا أو يفكك عقد هذه النفوس، لكننى أقول: «ويل للعراقيين وللعرب» من الشرور القادمة على أيدى أمثال هؤلاء.

وقال آخر فى فضائية أخرى يدّعى الانتماء إلى فئة إسلامية كان لها فى الساحة العراقية شىء من رصيد: «جاءنى رجل دين، فقال: إن فى سجن «أبو غريب» خمسين ومائتين من العراقيات يُعَذَّبْنَ ويغتصبن من الجنود

الأمريكان» يقول الأستاذ الداعية المسئول لمقدم البرنامج : «أنت تعلم أننى عربى مسلم حين سمعت هذا الكلام طلع الدم إلى رأسى ، فذهبت إلى السجن بنفسى فلم أجد أكثر من سبع نساء ثلاث منهن كن يتسترن على إرهابيين وأربع ذوات جرائم عادية . . »، وبعد أيام صرح هذا الداعية نفسه بأنه لا يستطيع دخول سجن « أبو غريب» أو غيره أى عضو من أعضاء مجلس الحكم أو الحكومة ! !

أراد المناضل أن يبين ما يعتبره مبالغة وتضخيمًا لما لا يستحق المبالغة ! ! ونسى الدكتور الداعية المناضل العائد من المنفى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾

[المائدة : ٣٢] .

إن العبرة فى الجرائم ليست بضخامة عدد من وقعت عليه الجريمة ، بل بالجريمة ذاتها ، صحيح أن للقاضى أن يلاحظ الظروف المشددة والمخففة ، ولكن العقاب يناط بالجريمة ذاتها ؛ فاغتصاب امرأة واحدة مثل اغتصاب نساء العالم ـ كلهن ـ ذلك لأن المغتصب لم يغتصبها لذاتها ، أو لكونها سنية أو شيعية عربية أو كردية أو تركمانية بل لأنها امرأة ، ولذلك فإن جريمته تعد جريمة فرد تجاه جنس أو نوع .

ولقد قال غيرهم من المنافقين مثل قولهم أشد قليلاً أو ألين قليلاً ، وما سمعت أقوالاً تهون من شأن تلك الجريمة من أحد فى العالم ـ كله ـ مثل الذى سمعته من بعض أولئك الذين باعوا للشيطان نفوسهم من العراقيين ، يليهم بعض الحكام ورجال الإعلام من حملة نفسيَّة العبيد من العرب .

تفكك مفهوم الأمة وضرورة المراجعة

ولا تهمنى هوية المتقبل لتلك الجرائم بقدر ما يهمنى بيان كيف تحطم مفهوم «الأمة» وتم تفكيكه لصالح دعاة الطائفية السياسية والحزبية، والمصالح والولاءات الضيقة بحيث لم يعد عند أىّ من هؤلاء أىُّ ولاء للأمة أو للملة، وذلك ليعلم من بقى من أبناء الأمة أننا فى حاجة ماسة، بل فى حالة اضطرار إلى العمل الجاد لتحقيق أمرين اثنين:

الأول: توحيد الله - تعالى - وإفراده بالألوهية والربوبية والصفات وتكريس ولائنا - كله - له وحده لا شريك له من حكومة أو طائفة أو حزب أو قبيلة أو سواها.

الثانى: العمل على إعادة بناء الأمة مفاهيم وكيانًا لعل ذلك يساعد على إنقاذ ما يمكن إنقاذه.

وأهم ما نحتاجه لتكون البداية سليمة أن نقوم - جميعًا - بعملية مراجعة جماعية على مستوى الأمة «سابقًا» لتراثنا كله منذ وفاة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - والتحاقه بالرفيق الأعلى وحتى الساعة التى نحن فيها. وهذه المراجعة يجب أن تكون مراجعة منهجية تنهض بأعبائها الجسام جامعاتٌ متخصصةٌ ومراكزُ بحوث تضم صفوة من علماء الأمة المتخصصين فى كل فروع المعرفة. وهذه المرَاجعة ليست من قبيل الترف الفكرى، بل هى مراجعة ضرورية يستحيل بناء مشروع يستهدف إعادة بناء «الأمة» بدونه. فإننا فى كثير من محاولات الإصلاح والتجديد السابقة كنا نهرع إلى المواجهات التى تفرض علينا، أو نتصدى لها دون

قيام بالمراجعة فنفرح بانتصار شكلى أو غلبة مؤقتة لا تلبث أن تتبخر فى مواجهة أخرى وهكذا. فبقيت سلبياتنا الفكرية تتراكم، وأخطاؤنا وانحرافاتنا تترسخ حتى بلغنا هذا الحضيض الذى نتردى فيه. إننا فى حاجة إلى المراجعات الشاملة لعلومنا وثقافاتنا ونظمنا وحركاتنا وتاريخنا ـ كله ـ ومهما أخذت هذه المراجعة من جهد ومال ووقت فإنها ضرورة لا بد منها، وشرط مسبق لا بد من تحقيقه، ولا يقبل ـ بحال ـ تجاوزه.

وقد يكون لى أن أقترح على إخوانى المؤرخين تقسيم تاريخ الأمة إلى مراحل ثلاث:

المرحلة الأولى: هى المرحلة الممتدة من عصر النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وحتى عصر التدوين.

المرحلة الثانية: من عصر التدوين حتى بداية مرحلة الاحتكاك بالغرب من موقع الضعف والفرقة والتمزق.

المرحلة الثالثة: وهى التى بدأت فيها الأمة محاولة اللحاق بالركب الغربى الأوربى، ولا ترى مانعًا من تبنى رؤيته وأفكاره، ونظمه وعلومه لإحداث التجديد أو بلوغ الحداثة، ويمكن اعتبار نهاية المرحلة الثانية وبداية المرحلة الثالثة من عصر سليم الثانى، أو دخول ناپوليون مصر أو أى مفصل تاريخى مؤثر آخر.

وإذا كنا قد ذهبنا إلى اختيار هذا الفاصل؛ لأنه يمثل فاصلاً حقيقيًا فى مجال الرؤية الكلية والمعرفة والثقافة والفكر والتشريع وأنماط السلوك

والحياة، فهذه ـ كلها ـ فى المرحلة الأولى كان المنطلق فيه من الإسلام، فهو المرجعية المطلقة والوحيدة فيه. أما المرحلة الثانية فقد تغيرت المرجعية فيها فصارت مزدوجة تجرى فيها مقاربة معطيات مرجعية من فلسفة، وعلوم موروثة عن الأوائل وسواهم بالإسلام، وفى المرحلة الثالثة دخلت المرجعية الغربية إلى الساحة بالمقاربة ثم المقارنة، وهكذا حتى ألف المسلمون ذلك وهيمنت المرجعية الغربية على حياة المسلمين كلها. من النظام السياسى إلى نظام إدارة المساجد والمؤسسات الدينية. وأرزت المرجعية الإسلامية، وانكمشت لتحصر فى دائرة ما عرف بـ «الأحوال الشخصية». وحتى هذه بقيت المرجعية الغربية تزحف عليها وتنقصها من أطرافها حتى لم يبق منها إلا القليل، الذى تجرى الآن عملية إنهائه والتخلص منه.



بين الفجر الصادق والفجر الكاذب

ولقائل أن يقول : وماذا عن «الصحوة الإسلامية» والبنوك الإسلامية والتعليم الإسلامى، بل والانقلابات الإسلامية، والحكومات الإسلامية، والحكومات التى انبثقت عنها، بل هناك «السياحة الدينية» بتكرار الحج والعمرة لدى فريق، وزيارة أضرحة الصالحين وشهداء آل البيت، ألا يدل ذلك على أن المسلمين ما زالوا بخير؟ فأقول : إن هذه الممارسات ـ كلها ـ تنطلق من فكر المقاربات والمقارنات ومن إحساس عميق بالهزيمة والإحباط، ورغبة شديدة فى الغياب عن الشهود، فالشهود قاسٍ معذب مؤرق موجع، والكل يحب الغياب، ولكل وجهته فى التخلص من عذاب الشهود بالغياب، أى غياب، لكن ذلك ـ كله ـ لا يغير من حقائق الواقع شيئًا.

إن مراجعة تفاصيل تراث المراحل الثلاث ضرورة لا بد منها، ولا بد أن يتم ذلك وفقًا لمقاييس صارمة مطردة منعكسة لا تحابى أحدًا ولا تجامل فرقة ناجية أو هالكة.

وهذه المقاييس المقترحة للمراجعة يمكن تحديدها إذا طرحنا على كل معنى بجانب من جوانب المراجعة الأسئلة التالية لعلها تعيد بناء وترميم حاسة المراجعة لدى هؤلاء وهى :

الأول : كيف بنى الله ـ جل شأنه ـ هذه الأمة، وكيف صنعها على عينه؟ وما دعائم ذلك البناء؟ وما الخصائص الذاتية التى أودعها الله ذلك الكتاب، وأناط بها بقاءه واستمرار تقدمه ودوامه، أو غرس فيها قابليات التجدد وقابليات الانهيار، واستعدادات الاستقامة، وبذور الانحراف؟

الثانى : بعد أن يجرى تحديد ذلك بأقوى وأعلى ما يمكن من أوجه الدراسة المتعمقة، والتحليل الدقيق يطرح السؤال التالى : كيف يمكن أن نصحح العقيدة والرؤية الكلية القائمة عليها بحيث نجعل منها وسيلة ومنطلقًا لإيجاد وعى عقيدى صادق يتسم بالحيوية والحياة والحركة، قادر على فهم التاريخ، وتحليل عناصره، واستيعاب دروسه، وتحويلها إلى رافد يرفد الوعى، ويزيد فى حركيته. وعى يستطيع إدراك العلاقات المتينة بين سلامة العقيدة، وصحة الرؤية الكلية، وقوانين القوة والطاقة المادية والمعنوية، هذه القوانين التى بثها الله ـ تبارك وتعالى ـ فى القرآن والإنسان والكون، وهى قوانين وسنن ثابتة لن تجد لها تحويلاً ولا تبديلاً، الإنسان مسئول ومسئولية مباشرة عن اكتشافها، ومعرفة كيفية توظيفها بصرامة منهجية لا تقل عن ثبات السنن وصرامتها، وذلك لإحداث حالة» «العلو» «الإسلام يعلو ولا يعلى عليه» وتجاوز حالة «الاستعلاء المفتعل». فبلوغ ذلك يمنح الأمة «حالة التفوق». «والجمع بين القراءتين» الذى ننادى به ونصر عليه، هو السبيل للكشف عن تلك السنن، وبلوغ تلك القوانين، الذى يقود بدوره إلى :

الشرط الثالث: وهو مراجعة الحالة العقلية والنفسية للأمة مراجعة شاملة ودقيقة من شأنها أن تمكن من الكشف عن سائر العناصر السلبية فى فكر الأمة، وكيف نشأت، ولم نشأت، وما الذى أدت إليه، وكيف يمكن تطهير عقلية الأمة ونفسيتها من تلك الإصابات؟ وكيف يمكن إيجاد جهاز مناعة يمنع من إصابة العقلية والنفسية الإسلامية بهذه السلبيات فى المستقبل؟ ولا بد من الكشف عن مبادئ ووسائل تكوين آلية عقلية ونفسية تعمل على تشكيل طاقة فكرية سليمة ومعطاءة تؤدى إلى توليد ذاتى لعناصر المناعة والقوة، وإيجاد الأفكار السليمة باستمرار؛ لئلا يكون هناك فراغ تمتد الأفكار السلبية فيه، وهذه الآلية - هى التى تجعل العقل المسلم قادراً على الدوام على قراءة المعطيات الكونية وموجهات القرآن لفهم القوانين والسنن التى تجعله ممسكًا على الدوام بعناصر القوة المعنوية والمادية فى توازن تام.

الرابع: إدراك فعل الزمن وصيرورته فى تغيير مستويات القوة والتفوق، وأثر ذلك فى تغيير الوسائل والإمكانات التى تمكن من توظيف مؤشرات الوحى وقوانين الكون وسننه، والطاقات الإنسانية بشكل علمى منهجى مترابط قادر على توليد عناصر القوة المناسبة للمستويات المختلفة، فلا يحدث خلل أو فراغ أو تعطيل فى أى جانب.

الخامس: إدراك العلاقات الجدلية القائمة بين الغيب والإنسان والكون. هذا الإدراك بدونه يتعذر أن يتمكن العقل المسلم من القيام بمتطلبات النقد والمراجعة التى تقود الإنسان المسلم إلى حالة التجدد والتجديد.

إن لأمريكا وأوروبا والصين وروسيا والدولة العبرية أهدافًا محددة واضحة من بلوغ «حالة التفوق»، وهى باختصار توجيه مقومات هذا التفوق بكل أنواعه لكسر إرادة الآخر، ودفعه إلى الاستسلام لإرادته أو القضاء على مصادر هذه الإرادة، وهى عقيدة ذلك الآخر ورؤيته الكلية، ونموذجه المعرفى والتنظيمى، وقدراته الإنتاجية. أو حمله على قبول مبدأ التبعية لتلك الذات، أو القضاء عليه ذاته، ولذلك تتنوع وتتعدد الوسائل المستعملة من قبل الذات ضد الآخر من وسائل سياسية إلى ثانية عسكرية، إلى اقتصادية وفكرية وثقافية وإعلامية وعلمية. وقد تستعمل - كلها - مرة واحدة، وذلك بحسب ما يراه الطرف المتمثل بالذات، وتقديره لمستوى إرادة الطرف الآخر وما ينبغى توجيهه ضده لتحقيق الهدف وكسر الإرادة.

ونستطيع القول بأن ما استعمل ضد الشعوب العربية والإسلامية التى كانت تشكل «الأمة المسلمة» فى تاريخنا الحديث كان شاملاً لكل تلك الوسائل لم يستثنِ شيئًا منها، فقد أخضعت لضغوط عديدة تحت شعار «حماية الأقليات غَير المسلمة» أو أى شعار آخر، وحين اكتشفوا ضعفها عن المقاومة، وذلك - كله - على خلاف ما اعتادوه منها فى تاريخه البعيد، أخضعوا أهم حواضرها لقبول الاختراق التعليمى والتجارى والمالى والسياسى، ثم الغزو العسكرى، والاحتلال المباشر لتفكيك منظوماتها العقيدية والفكرية والسياسية والقضائية والشرعية. وتفريغها وجعلها على استعداد لقبول البدائل الغربية، وذلك - كله - تمهيدًا لإدماجها فى تيار

«العولمة الحداثى» أو ما بعد الحداثى . وهذه هى المرحلة التى نحن فيها . مرحلة تفكيك سائر ما بقى من البنى وجميع أطلال المنظومات ، تمهيداً لإعادة تشكيل الأمة المسلمة وفقًا للتصور الغربى الصهيونى .

* * *

درس من التاريخ الأوروبى

إن ابتلاء الأمة بالمصائب والكوارث ومنها كوارث الاحتلال، وهيمنة الأعداء يفترض فيه أن يدفع الأمة - غالبًا - إلى عمليات المراجعة والنقد، إذ أن الصدمات التى تحدثها عالية جدًا فى طاقاتها بحيث تدفع بكل فصائل ذلك الشعب أو الأمة إلى وقفة مع النفس وبحث عن الأسباب، ومجموعة المشاعر التى تحدثها تلك الصدمات كفيلة بإخراج الناس - إذا كانوا أسوياء - من سائر مؤثرات الحالة الرتيبة والسلبيات التى تكتنفها إلى حالة مراجعة تحقق التجديد.

إن فى فتك الكنيسة بالعلماء أمثال « جاليليو » فى بداية عصر الأنوار دلالةً واضحةً على أمرين:

الأول: أن الكنيسة كانت ترفض أية مراجعة حتى للمسلّمات الخاطئة حول الأرض، وعناصر الكون؛ لأن المراجعة سوف تهز القواعد العقيدية التى تمثّل المرجعية لتوليد الرؤية الكلية، المولدة لأصول ومنطلقات القوة.

الثانى: أنها ترفض - فى الوقت ذاته - أن تفتح الباب أمام اتخاذ أية مرجعية أخرى، ومنها مرجعية العلم؛ لأن ذلك يعنى أن مرجعيتها فى تقديم المضمون الفكرى والعلمى للبشرية سوف تنتهى، أو فى أحسن

الأحوال سوف تتقلص، وبالتالى تنتهى هيمنتها على مصادر التكوين العقلى والنفسى وتوليد أصول القوة.

ولذلك فإن علينا أن ندرك أن لدينا قوى كثيرة ترفض المراجعة والاعتراف بالقصور، وتمارس حالات استعلاء كاذب لا أساس له. وهذه القوى موزعة بين تيارى التراث والحداثة معًا. ولذلك فإن مهمتنا ستكون شديدة الصعوبة، ومعاركنا ضد هذه القوى الرافضة للمراجعة طويلة المدى، لكن الله معنا، وحركة التاريخ لصالحنا، فكيف نقوم بتسخيرها؟

* * *

تسخير قواعد وأسباب الحركة التاريخية

من هنا فإن على المعنيين بقضية «الخلاص والإصلاح» فى الأمة المسلمة أن يكونوا:

أولاً: على وعى تام بقواعد وأسباب الحركة التاريخيَّة، وأن يقودوا عمليّات المراجعة لتاريخ الأمة وتراثها وحاضرها بعد الكشف عن تلك القواعد والوعى بها.

ثانيًا: هم فى حاجة ماسة إلى الوعى بالأبعاد العقيدية وأركان العقيدة وأصولها - كما يقول الكلاميُّون - وعلاقاتها بأصول القوة، وقوانين الحركة التاريخية.

ثالثًا: الوعى بالعلم والإيمان، وبأن كلاً منهما ركن أساسىّ لا يصلح شىء بدونه، وأن الأمة تكتسب من عناصر القوة ومصادرها بقدر ما تكتسب من العلم. وأنه إذا كان الله - تبارك وتعالى - قد فرض بالدليل القطعى من القرآن على الأمة الأخذ بسائر أسباب القوة المادية والمعنوية بقوله - تعالى -: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ** ﴾ [الأنفال: ٦٠]. فإن ذلك فريضة محكمة وقانون إلهىٌّ وكونىٌّ لا يمكن للإنسان أن يتدين به ويطبقه بدون العلم، فإن الخطاب القرآنى العالمىّ يتعامل مع كل عصر بحسب سقفه المعرفى، والوسائل والتقنيات التى تتحكم بحركة كل عصر وسائل تختلف. وهنا أود أن أنبه بأن خروج المسلمين من عهدة الفرض الإلهي في قوله - تعالى -: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ** ﴾ لا تتحقق بشراء واستيراد الأسلحة الجاهزة من الآخرين. بل هو ذنب آخر يبوء به المسلمون المستوردون لتلك الأسلحة. كما أن الاعتماد على الغير، ومن ذلك الغير تلك المنظمات المسخ التى لا يعتد بها إلا الضعفاء، ونسبة الوهم الآخر الذى يسمونه بـ «الشرعية الدولية» إليها !!، وطلب النصرة منها فقط، يمثّل اعتمادًا على غير الله، وطلبًا للنصر من سواه، فلا بد أن ينسب النصر ويحصر بالله - تعالى - خالق الكون والإنسان والحياة، وواضع السنن والقوانين، وهو القادر على تحقيق نتائج القوانين والسنن، وترتيب المسببات على تلك الأسباب - إذا تعرضت الأمة بصدق إلى ذلك.

رابعًا: الوعى بأهمية المال والدور الخطير الذى يؤديه فى بناء أسباب القوة للأمم، ولذلك اشتد اهتمام القرآن به وبتنظيم عوامل الحصول عليه، وتوظيف سائر قوانين التسخير للكون والخلق للحصول عليه، وتنظيم وإنماء عوامل ووسائل الإنتاج. وتناول القرآن المجيد وسائل التوزيع ووسائل استعمال الفائض إن وجد، ونهى عن وضع ذلك بأيدى السفهاء، وهو وصف فى غاية الخطورة، فقد وصف به المنافقون، قال تعالى: ﴿ **وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا** ﴾ [النساء: ٥]، ويقول فى المنافقين: ﴿ **أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة: ١٣] ذلك يعنى أن المال مصدر من أهم مصادر بناء الأمم وتشييد قوتها.

وهنا لا بُدَّ لحملة ألوية التجديد والإصلاح فى الأمة من الوعى بخطورة كبائر تمكين أعداء الأمة من أموالها ومواردها سواء بالهبة أو الإيداع، أو خفض الأثمان. ورهن مصادر أموال الأمة لدى أعدائها بطريق القروض والرهون وما إليها من وسائل معاصرة لتبديد أموال الأمة، فما فى بطون الأرض ملكيّة للأمة عامة، لا يجوز الافتئات على الأمة، والاستبداد بالتصرف به دون تفويض منها.

خامسًا: الوعى بأهمية الإنسان عقلاً ونفسًا وجسمًا، وهنا يتم تشغيل مجموعات هائلة من القواعد القرآنية والسيرة النبوية العطرة والسنن الثابتة لبناء الإنسان السوى الذى يصلح أن يكون لبنة صالحة سليمة قوية فى بناء الأمة. ورصد سائر السلبيات التى شلت إنسان هذه الأمة ونزلت

به عن مستوى النموذج الذى رسمه القرآن بقوله ـ تعالى ـ: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ (٧٥) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ٧٥، ٧٦]. فمن هو المؤمن القوى الذى فضله رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ على المؤمن الضعيف، إنه هو الأمين الغنى القادر على أن يسد احتياجاته وينفق على نفسه وسواه سرّاً وجهراً. إنه الهادى المهتدى الذى يعرف كيف يكون على صراط مستقيم حين تلتبس بالناس السبل، ويعرف كيف يأمر بالعدل ويحققه، ويجعله مع القيم الأخرى واقعًا تستظل البشرية بظلاله الوارفة. إنه المؤمن الذى يدرك كيف يكتسب كل أنواع العلوم والمعارف والخبرات ويستفيد من التجارب، ويوظف سائر قواه وطاقاته العقلية النفسية والجسمية أحسن توظيف. وفى مقدمتها قوى وعيه الثلاث «السمع، والبصر، والفؤاد»، ذلك هو المؤمن القوى. وذلك هو العنصر الصالح لأن يكون عضواً فى هذه الأمة.

سادسًا: فإذا اجتمعت كل تلك العناصر لا بد من الكشف عن كل قوانين التأليف بين هذه العناصر التى تتألف الأمة منها، وسائر القوانين المضادة لتلك القوانين التاريخية والتأليفية. والقرآن المجيد لم يغادر شيئًا من هذه القوانين إلا تناوله، وكل المطلوب نهوض أهل الذكر بأعباء الفهم والتحليل والعمل والتعليم لتفعيل هذه القوانين بعد استيفاء ما تقدم لبناء القوة الفريدة «الأمة».

إن الأمة حين تقوم بالوعى بكل ما تقدم وتحسن مراجعته، تكون قد قامت بالمراجعة واستوفت شروط الاستعداد للتجدد ولممارسة الأدوار المنوطة بها بشكل لا يخالطه أى شك ببلوغها أهدافها إن شاء الله ـ تعالى. ولن يستطيع ـ آنذاك ـ أحَدٌ الافتئات عليها.

إننا نأمل أن تكون وقائع القرنين الماضيين وبدايات هذا القرن قد أفرزت وشكلت دوافع لا نقول كافية، بل زائدة عن الحد لحمل أبناء أمتنا على القيام بالمراجعة والوقوف على طريق التجديد بعون الله ـ تعالى ـ وفضله وعزته ونصره ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق : ٣٧].

* * *

حزب البعث وأهل السنة

وأيّا ما كان الأمر فإن الباحث عن نسب لـ «حزب البعث العربى الاشتراكى» فى «أهل السنة والجماعة» من أهل العراق أو غيرهم يستحيل أن يجد بينهما أى نسب أو صهر أو قرابة، اللهم إلا كما قال النعمان بن بشير ـ رضى الله عنه ـ لمعاوية:

فَأَشْهَدُ أَنَّ رَحْمَكَ مِنْ زِيَادٍ　　كَرَحْمِ الفِيلِ مِنْ وَلَدِ الأَتَانِ

إنَّهما أعنى «حزب البعث العربى الاشتراكى» وطائفة «أهل السنة والجماعة» لا صلة بينهما، ولا علاقة لأى منهما بالآخر، وأىُّ ادِّعاء آخر هو هراء لا دليل عليه ولا يقوم لبحث أيّا كان. فطائفية حزب البعث

بشقيه الشيعى والسنّى طائفية سياسية نفعية انتهازيَّة لا علاقة لها بدين ولا مذهب، ولا يلتقيان فى مقولة أو رأى. والباحث عن أى نسب: لـ «حزب البعث العربى الاشتراكى» فى «أهل السنة والجماعة»أو الشيعة إنما هو باحث عن سراب:

أَيُّهَا الـمُنْكِحُ الثُّرَيَّا سُهَيْلاً عَمْرُكَ اللَّهُ كَيْفَ يَلْـتَـقِيَانِ

كما أن الباحث عن نسب للحزب الشيوعى مع الشيعة خاصَّة يستحيل أن يجد أى نسب أو صهر أو قرابة بينهما. فليست هناك أية صلة بين الفريقين أو علاقة فكرية أو عقيدية أو سلوكية لأى منهما بالآخر، ووجود حرفى «الشين والعين» فى كلا المصطلحين لا يمكن أن يبنى بينهما صلة أو قرابة.

* * *

الأمة والتمزق

حين بنى الله - تبارك وتعالى - هذه الأمة الشاهدة أوضح بما لا يدع مجالاً للنقاش أن البانى لهذه الأمة وواضع أسس بنائها هو الله - جل شأنه - وأن من كلف برفع قواعد هذا البناء - الأمة - هو رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - متبعًا فى ذلك ما أوحى إليه من ربه. إذ أن الأمة هى خليفته من بعده فى مهمة «الشهادة علي البشرية»، والحضور الدائم بينها حتى قيام الساعة ﴿وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج : ٧٨] . والله - عز وجل - تكفل بعصمة رسول الله

من الناس ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] فما نال منه أحد. وتكفل بحفظ القرآن ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] فلم يستطع أحدٌ النَّيْلَ منه. لا فى عصر نزوله ولا فيما تلاه، وسيبقى محفوظًا بحفظ الله - تعالى - إلى يوم الدين. والأمة المسلمة تكفل الله - بذاته العليَّة - بالتأليف بين قلوبها مشروطًا دوامه وبقاؤه باعتصامها بحبل الله، وهو القرآن المجيد. فإذا أرخى المؤمنون أيديهم عن التمسك بحبل الله - تعالى - سقطت حالة التأليف، وعادت حالة العداء. ولقائلٍ أن يقول: ولمَ لَمْ يكن الأمر قدرًا حتمًا كما كان الحال فى «عصمة النبى - صلى الله عليه وآله وسلم -» وحفظ القرآن؟ والجواب: أن الإنسان حُمِّل أمانة الاختيار، فباختياره يعتصم بحبل الله، أو يفرط فيه، وللاعتصام شروطه ودرجاته، وللتفريط دركاته. والله - تبارك وتعالى - هو الذى يعلم من الأمة استيفاءها شروط التأليف، فيؤلف بينها ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣] أو عدم استيفائها لتلك الشروط، وآنذاك لن تجتمع على شىء، ولن يستطيع أحد جمع كلمتها.

وعلى هذا فعلى عناصر الأمة المفرقة الممزقة أن تسعى لاستيفاء شروط التأليف فى كل عصر بحسبه، ثم تتعرض لنفحات الله - تبارك وتعالى - ليَمُنَّ عليها بالتأليف بينها، وإعادة وحدتها وكيانها.

* * *

الأحاديث الموضوعة والضعيفة وأثرها فى تمزيق الأمة

إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى جزيرة العرب بعد أن ضرب الإسلام فيها بجرانه، ونزل قوله ـ تعالى ـ: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣] كما يئس من اجتيال الأمة ـ كلها ـ عن دينها. ورضى من دون ذلك بما يحقر الناس من أعمال. ولم يستطع إبليس اللعين بكل ما أجلب على القرآن من خيل ورجال وكهانة وسحر ومحاولة معارضة وتشويش أن يخترق هذا القرآن، الذى حال الله ـ تبارك وتعالى ـ بينه وبين اختراقه، وحفظه وحرسه بنفسه، فعمد اللعين إلى فتنة التفسير المنحرف والتأويل البعيد وفتنة الأحاديث.

أما فتنة التفسير فقد استطاع اللّعين وأنصاره أن يحملوا على القرآن المجيد فيه كل التراث الزائف المريض الذى حفل به تراث الأمم السالفة ـ مستغلين تماثلاً موهومًا بين بعض موضوعات ومحاور القرآن، وتراث تلك الأمم فى قضايا الخلق وقصص الأنبياء والأحداث الكبرى كالطوفان وما إليه. وشتان بين ما أورده القرآن فى هذه الأمور، وما جاء فى التراث المريض الموبوء، فالقرآن فى كل ذلك جاء بالصدق وصدق عليه، أما ذلك التراث فقد زيف الصادق، وحرف الكلم عن مواضعه، وكان الكذبة، والويل لهم، ﴿ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٧٩] وفى ذلك يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا

يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران : ٧٨]. وأما التأويل فقد أسرفوا فيه، وبالغوا، بل أتوا فيه بالعجائب.

وأما فتنة الأحاديث(٤٦) فقد كانت فتنة عمياء مضلة، حيث قامت حركة وضع وفبركة وأكاذيب تداعى لها الوضاعون ومحترفو الكذب، فنسبوا إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - الألوف من الأحاديث الموضوعة التى نزّه الله لسان نبيه الشريف عن قول شىء منها. ونسبوا إلى الصحابة من الآثار ما لم يقل أحد منهم شيئًا منها. ومع أن جهابذة علماء الأمة قد أسسوا علوم الإسناد وعلوم الرجال، وجعلوها من الدين وبذلوا فيها من الجهود ما لم تقم أمة بمثل جزء منه. بيد أن أعدادًا محدودة من تلك الآلاف الكثيرة قد نفذ من معايير ضوابط الأسانيد، وضوابط نقد المتون فوصل إلى عقول الناس واشتهر على ألسنتهم، وشاع بين القصاصين والواعظين والراغبين فى نقل وتناقل الغرائب، فتوهم الناس أنه صحيح، فتمسكوا به، وعملوا بمقتضاه، فولد ثقافة مريضة، وأفكارًا معطوبة، وسلوكيات منحرفة أورثت الأمة فرقة وضعفًا وانحرافات غاية فى الخطورة.

وبعض علماء الفرق والمذاهب والطوائف وجدوا فى بعض هذه الأحاديث ما يستطيعون دعم بعض آرائهم ومواقفهم به إذا اتخذوه شاهدًا أو دليلاً، فابتكروا دعوى «التواتر المعنوى»(٤٧). لما عز عليهم أن يجدوا

له سند صحة فضلاً عن دليل تواتر. وأضافوا إلى تلك الدعوى دعوى غامضة أخرى لا تندرج تحت أية قاعدة منهجية، وهى «تلقَّتْه الأمة بالقبول»[٤٨].

وكلتا الدعويين « التواتر المعنوى» و«تلقَّته الأمة بالقبول» دعوى غامضة لا تلتقى مع المناهج التى وضعها المحدثون أنفسهم، ومع ذلك فقد استعملت فى تصحيح وتعزيز أحاديث تعلقت بموضوعات فى غاية الأهمية. والحديث الذى يهمنا تناوله من بين تلك الأحاديث فى بحثنا هذا حديث «تفرُّق الأمة» وهو نموذج من أخطر النماذج التى تسللت إلى عقل الأمة تحت ستارى «التواتر المعنوى» و«تلقته الأمة بالقبول».

وهذا الحديث بألفاظه المختلفة قد أحدث فى بناء الأمة شروخًا ما تزال تعانى منها إلى اليوم. ولا ندرى متى تتمكن الأمة من الانعتاق منه ومنها. بعد أن تأسست علوم صارت تشكل أقسامًا دراسية فى جامعاتنا وكلياتنا المعاصرة وحوزاتنا العلمية. فعلم «الفرق والملل والنحل»[٤٩]. قد قام على أساس من هذا الحديث.

إن حديث «افتراق الأمة» جاء بألفاظ كثيرة تتجاوز العشرين لفظًا من طرق عديدة منها: طريق على ـ رضى الله عنه ـ وأبى هريرة، وأنس بن مالك، ومعاوية بن أبى سفيان وغيرهم. وقد أخرج الترمذى وأبو داود وأحمد وابن عبد البر وابن وهب فى جامعه، وروايته أغرب الروايات، حيث زاد فى عدد الفرق زيادة لم نجدها فى روايات غيره، حيث أورده

بلفظ : «إن بنى إسرائيل تفرقت إحدى وثمانين ملة، وستفترق أمتى على اثنتين وثمانين ملة، كلها فى النار إلا واحدة، قالوا : وما هى يا رسول الله؟ قال : الجماعة»(٥٠) . وقد اختلفت ألفاظه اختلافًا شديدًا، فلم نجد لفظين منها قد اتفقا. كما أن أسانيده ـ كلها ـ لم يخل واحد منها من راو أو ضعيف أكثر ، أومن راوٍ مجهول، أو مخطىء، أو مختلف فيه أو صاحب بدعة أو منكر الحديث.

وقد جمع المحدث الكبير الشيخ محمد يحيى سالم عزّان روايات حديث «افتراق الأمة» فوجد كما وجدنا أن ألفاظه شديدة الاختلاف، وأن تلك الاختلافات فى نقل ألفاظه كانت ذات تأثير كبير فى اختلاف معانيه. وحين نستعرض ما جمع من روايات الحديث يُلاحظ أن الروايات التى حظيت بتصحيح بعض المحدثين وتخريجهم جاءت بألفاظ تخبر بأن هذه الأمة سوف تتعرض إلى «داء الاختلاف» كما عرض ذلك الداء لأمم خلت من قبلها. ورسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ حين يحدث الأمة بمثل هذا الحديث فإنه يعظها، ويقوم بعمليات تحذير مسبقة لتحصينها من ممارسة ما قد يؤدى بها إلى الفرقة والاختلاف المدمرين لكيانات الأمم. فهو ليس كما فهم الكثيرون بأنه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ كان يخبر بذلك باعتباره نبوءة أو كما سموا مثله «أعلام النبوة» فيكون بمثابة قدر مقدور لا حيلة للأمة بدفعه ولا بد من وقوعه. بل هو وعظ وتحذير من الوقوع فى مستنقع الاختلاف، فإذا وقع الاختلاف بالرغم من جميع الاحتياطات التى اتخذتها الأمة،

فهنا لا بد من الوقوف فى وجه الباغى حتى يثوب إلى رشده، إذ أن هذا الحديث بذلك - وحده - يصبح منسجمًا مع قوله - تعالى -: ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات: ٩]. وبذلك تكون الأحاديث الصحيحة واردة أساسًا على أمرين: الأمر الأول: تحذير المؤمنين ووعظهم أن يسقطوا فى براثن الاختلاف: فإن حدث وقع ذلك بينهم فالمخرج منه ما ذكره الله - تبارك وتعالى - من الاحتكام إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فى حياته، وبعد وفاته إلى الكتاب الكريم وبيانه من السنة.

أما ذلك الفهم الذى أدى إلى قيام «علم الملل والنحل والفرق» فإنه نظر إلى هذه الأحاديث على أنها إخبار من الصادق الأمين - صلى الله عليه وآله وسلم - بوقوع ذلك الافتراق حتمًا. ونظرًا إلى وجوب تصديق رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فى كل ما يخبر به. فقد اعتبروا أن الافتراق والاختلاف والتنازع قدر حتم لا راد له، وما علينا إلا أن نستسلم له ونرضخ ونتنازع من هى الفرقة الناجية والهالكة. وهذا ما لا يمكن أن يكون مراد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم.

ولا يتفق ظاهر القرآن فى التوكيد على التأليف بين المؤمنين، وجمع كلمتهم ونبذ ما يفرق بينهم، والعمل على احتوائه والتقليل من آثاره عندما يحدث.

الفرقة وإشكالية الفرقة الناجية

إن الاختلاف بينهم فى ألفاظه ومعانيه ورجاله وأسانيده، وضعفه ووضعه وصحته بلغ الغاية، ومع ذلك فإن جل الفِرَق قد تبنت تداوله والاستشهاد به؛ لأن كل فرقة وجدت فيه ما يمكن أن يعزز موقفها، ويجعلها الناجية، الحافظة لسنن رسول الله والممثلة للجماعة. وبعض هذه الفرق وضعت من الألفاظ ما يناسب مرادها، وكل ذلك يرفع إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وينسب إليه، وحاشاه صلوات الله وسلامه عليه أن يأتى بما لا يقبله كتاب الله - تبارك وتعالى - وأنى للقرآن أن يقبل ذلك، وهو البانى لهذه الأمة لبنة لبنة والحارس لوحدتها.

والحديث قد أفرد له الشيخ محمد سالم عِزّان دراسة خاصة نشرت فى مجلة المسار، ثم نشرت مستقلة[٥١]، وقد استقرأ فيها رواياته - كلها - عند سائر الفرق المسلمة، وبيّن ما فى كل رواية من ضعف أو وهن أو إرسال أو تدليس أو جهالة. وقام بنقده ألفاظًا وأسانيد، وخلص إلى أن الحديث لا يصح بحال وفق مناهج المحدثين لدى أية فرقة أو طائفة، وقد اتضح من دراسته أن تصحيح الألبانى لبعض ألفاظ الحديث لا يركن إليه، فهو تصحيح فى حاجة إلى تصحيح.

ولعلنا نوفق إلى إفراد هذا الحديث بدراسة خاصة أخرى نبين فيها الآثار النفسية والعقلية والاجتماعية التى أحدثها هذا الحديث فى البناء التربوى للأمة.

وقد أثرنا هذا الموضع المتخصص فى هذه الدراسة التى لم نوجهها للمتخصصين، بل لجمهرة الأمة؛ لأننا رأينا أننا لا بد أن نصارح علماء السنة والشيعة - معًا - فى العراق بأن النجاة والهلاك أمران أخرويان، وأن الحكم فى أى منهما منحصر بالله - تبارك وتعالى - فهو الذى يحكم بين عباده فيما هم فيه يختلفون. أما الدنيا فهى دار العمل والابتلاء ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [تبارك: ٢]. ولن يغفر الله لمن يشرك به بعد أن يتضح له طريق التوحيد. ولن يغفر لأولئك الذين يفرقون كلمة الأمة، ويجعلونها شيعًا وأحزابًا، وينساقون وراء الطائفية السياسية - الذين يرون فى كرسى السلطة مهما كان حجمه ما رآه بنو إسرائيل فى العجل، إذ قال لهم السامرى: هذا إلهكم وإله موسى. فالله - تبارك وتعالى - قال: ﴿وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٢]. وتبرأ منهم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - كما تبرأ منهم آله وأصحابه ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩]. إلى غير ذلك من الآيات الدالة على منع التفرق، وجعله مقرونًا بالشرك. وقوله - تعالى -: ﴿شِيَعًا﴾ أى جماعات قد فارق بعضها البعض، ليسوا على تآلف ولا تعاضد ولا تناصر، بل على ضد ذلك. فإن الإسلام واحد،

وأمره واحد، وحبل الله واحد، فلا بد أن يكون المسلمون شيعة وسنة وعربًا وكردًا وتركمانًا وغيرهم، وأهل مدينة وأهل بادية يدًا واحدة، وقلبًا مؤتلفًا واحدًا. فإن ما حدث فى الماضى ما كان ليحدث لولا تفرق كلمة أبناء الشعب، واختلاف قلوبهم.

***

خاتمة

فى هذا القسم من الدراسة حاولنا أن نوضح مفهوم «أهل السنة والجماعة» فى حدود المتاح من المصادر. ولعله قد تبين من دراستنا لحديث الفرق أنه لا أحد يستطيع تحديد الفرقة الناجية غير الله تبارك وتعالى. على أن النجاة والهلاك فى الآخرة والجزاء والعقاب والثواب كل أولئك أمور تتعلق بالفرد من حيث هو فرد ﴿ **وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ** ﴾ [النجم: ٣٩ - ٤٠].

ورسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - نادى فى آل بيته ومنهم بضعته الطاهرة فاطمة الزهراء عليهما سلام الله وبركاته «**يا فاطمة بنت محمد اعملى فإنى لا أغنى عنك من الله شيئًا**» فكيف تغنى الطائفة أو الفئة أو الحزب عن المنتمين إليها أحسنوا أم أساءوا. إنَّه لا يغنى أحد عن أحد. فليس لأهل السنة أن يفاخروا الشيعة والمذاهب الأخرى بحجة أنهم «الفرقة الناجية». وليس للشيعة أن يفعلوا ذلك بحجة أنهم شيعة آل البيت وأنصارهم. فالمسلمون كلهم فى حب آل البيت والانتصار إليهم سواءٌ إلا الهالكين. وليس ذلك للإباضية ولا للزيدية ولا للسلفية، ليس لأحد من هذه المذاهب أن يدعى أن طائفته هى « الفرقة الناجية». فالحقيقة كَنْزٌ مدفون لا يعلم أبعاده - كلها - ولا يحيط بها إلا الله - تبارك وتعالى - والبشر فى محاولة مقاربتها والوصول إليها سواء، كلٌّ وجهده وتوفيق الله له.

فعلى الجميع أن يتمسكوا ويستعصموا بكتاب الله وحبله المتين لا بمقولات تاريخية أكل الدهر عليها وشرب ولم يبق منها إلا تلك الهياكل التى يبعث بها الحياة دعاة «الطائفية السياسية» عندما يرون لهم فى ذلك مصلحة ومنفعة. فلا ينبغى أن يستخف مثل هؤلاء بين الحين والآخر بأبناء الأمة ليدمروا مقوماتها.

وقد تبين أن الأحزاب اللادينية بعثية كانت أو شيوعية أو تغريبية لا علاقة لها بالدين، ولم تكن الأديان فى يوم من الأيام نسبًا وصهرًا، بل هى إرادة واختيار وتبنٍّ لرؤية كلية وإيمان ويقين وعبادة ونظام حياة يتبع الإنسان فيه رسلاً مبشرين ومنذرين يوحى الله إليهم بإذنه ما يشاء. فالأديان ليست برامج حزبية ولا أطرًا حركية. وبالتالى فدعوى أى من هذه الأحزاب النطق باسم دين ما أو مذهب ما لا تقبل على عواهنها ولا تؤخذ كما هى لمجرد إظهار احترام بعض رجال تلك الأحزاب لبعض الشعائر التى يتحول احترامها، أو التنويه بها إلى رصيد دعائى لذلك الحزب.

إن الأحزاب الإسلامية ذاتها كثيرًا ما تغير برامجها بعد الوصول إلى السلطة تحت ضغط عجلة السياسة، وتبدأ بإعطاء التفسيرات والتأويلات لما كانت تنادى به لعله بذلك يصبح منسجمًا مع ممارساتها السياسية. فكيف بتلك التى بنيت منذ البداية على اعتبار الدين معوقًا للتقدم، معرقلاً للتنمية، منافيًا للمجتمع المدنى، مقيدًا للحريات.

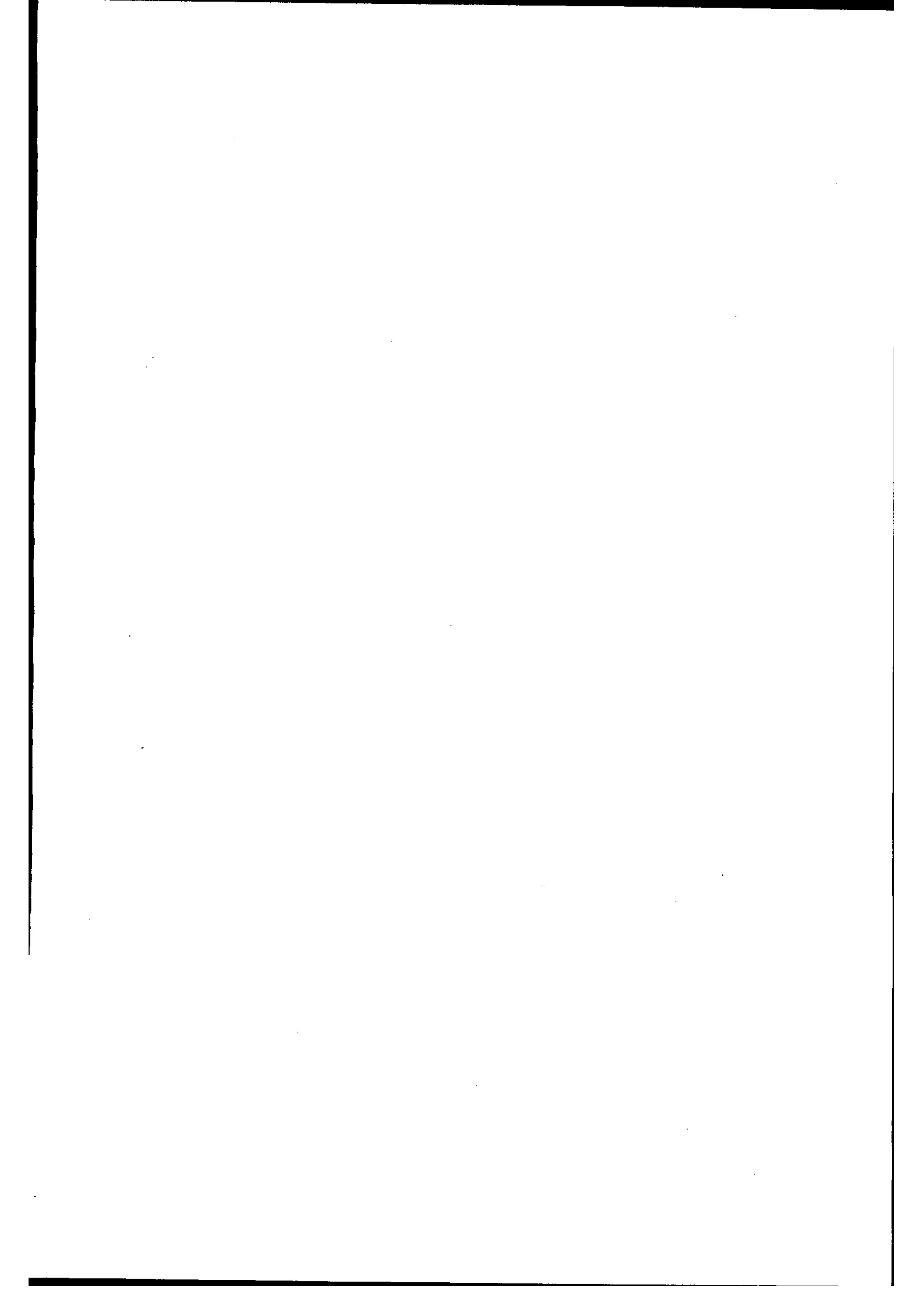
إنه ما من منصف حتى لو كان ذا انتماء بعثىّ يستطيع أن يقول : إنّ السنّة فى العراق بعثيُّون ، أو أن حزب البعث فى العراق حزب سُنِّىٌّ . فلعلنا قد وفقنا لإبراز ذلك من خلال التحليل الدقيق لمفهوم «السنيين» ومفهوم «البعثيين» . وقد قادنا البحث إلى تناول ذلك الحديث الذى كان له أبلغ الأثر فى بناء نفسية التعصب ورفض الآخر وتحقيره والتعالى عليه بحجة وجود فرقة ناجية ، وكل الأمة وفصائلها بعد ذلك هالكة .

ولعلنا نوفق فى الحلقة الثالثة التى سوف نتناول فيها «الكرد» والقضايا التى أدت إلى سائر المشاكل التى عانوها فى ظل الدولة العراقية . أن نتبين ما إذا كان ما يزال هناك أمل فى رأب الصدع ، ولَمِّ الشمل ، واستنباط دروس الماضى لبناء حاضر جديد ، ومستقبل مشرق إن شاء الله ، أو أن ذلك سيكون جزءاً من تاريخ مضى؟!

اللهم إن هذه الأمة قد عانت الكثير فهيِّئ لها أمر رشدٍ يعز به أهل طاعتك ، ويذل فيه أهل معصيتك ، ويؤمر فيه بالمعروف ، ويُنهى فيه عن المنكر . إنك سميع مجيب .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

* * *



الهوامش:

(١) مطاع صفدى، «حزب البعث: مأساة المولد ومأساة النهاية». بيروت: دار الآداب، أكتوبر ١٩٦٤م، وسوف نشير إليه فيما بعد بـ«حزب البعث».

(٢) حزب البعث، مرجع سابق.

(٣) حزب البعث، مرجع سابق، ص ٦٥.

(٤) حزب البعث، مرجع سابق.

(٥) هناك كتاب مهم كتبه صلاح نصر (مدير المخابرات المصرية الأسبق) بعنوان «معركة الكلمة والمعتقد» عالج فيه ممارسات التعذيب التى تمارس لتغيير الآراء والأفكار والمعتقدات منذ عهد الفراعنة إلى عهده. وهناك أيضًا موسوعة أعدها الشالجى فى ستة مجلدات عنوانها «موسوعة العذاب» وهى تصب فى الإطار ذاته، وفى كلٍّ منهما نجد نماذج كثيرة لمصادرة حرية الرأى وحرية المعتقد.

(٦) يقول مطاع صفدى البعثى المؤرخ لحزب البعث: «تعتبر مأساة الأرسوزى أول فضيحة كبرى فى نشأة حزب البعث على يد عفلق الذى سرق طلائع الأرسوزى وعقيدته الجديدة، وساهم فى إبعاد هذا المفكر المناضل الفذ عن ساحة العمل الفكرى والنضالى».
راجع «حزب البعث»، مرجع سابق، ص ٦٦.

(٧) حزب البعث، مرجع سابق، ص ٥١.

(٨) حزب البعث، مصدر سابق، ص ٥٢، وانظر: أوكار الهزيمة، هانى الفكيكى، بيروت: دار رياض الريس، ١٩٩٧م، ص ١٤٣.

(٩) لا نود الخوض فى بيان الآثار الفكرية والنفسية والاجتماعية التى ترتبت على ذلك المركب، فقد تكفل البعثيون أنفسهم فيما كتبه مؤرخوهم بذلك ومنهم مطاع صفدى فى «حزب البعث: مأساة المولد ومأساة النهاية»، ومنيف الرزاز فى «التجربة المرة»، وهانى الفكيكى فى «أوكار الهزيمة» إضافة إلى العديد من الدراسات الغربية ودراسات الخصوم، وقد يكون ما فى «حزب البعث» كافيًا لتوضيح ذلك بشهادة شاهد من أهلها. مرجع سابق، ص ٦٨ ـ ٧٦

(١٠) حزب البعث، مرجع سابق، ص ٨٤.

(١١) حزب البعث، مرجع سابق، ص ٧٩.

(١٢) حزب البعث، مرجع سابق، ص ١٤٨.

(١٣) ليونارد بايندر. الثورة العقائدية فى الشرق الأوسط، ترجمة: جبرى حماد، القاهرة: دار القيم، ١٩٦٦م.

(١٤) هيردر «١٧٤٤ ـ ١٨٠٣م» مفكر وناقد ألمانى، ولد فى روسيا الشرقيَّة، ومن دعاة حركة التجديد الفكرى فى ألمانيا، سار على نهج تميَّز به فى الإيمان بالتطور.

(١٥) لويس برجسون «١٨٥٩ ـ ١٩٤١م» فيلسوف فرنسى ولد فى باريس من أصل يهودى، كان والده موسيقيّا، درس فى كلية فرنسا للفلسفة وانتخب عضواً فى المجمع العلمى الفرنسى ١٩١٤م، وحصل على جائزة نوبل ١٩٢٨م.

(١٦) مراد وهبة: المذهب فى فلسفة برجسون. القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٠م.

(١٧) هنا يستعير عفلق من الإسلام مفهوم الفطرة ويسقطه على عقيدته وأفكاره البعثية.

(١٨) فى سبيل البعث، مرجع سابق، ص ١٠ ـ ١٥، وكذلك الثورة العقائدية، مرجع سابق، ص ٢٤٣.

(١٩) مراد وهبة، مرجع سابق، ص ٤٩.

(٢٠) فى سبيل البعث، مرجع سابق، ص ٩.

(٢١) مراد وهبة، مرجع سابق ، ص ١٣ ، ولا يخفى أن «الرؤية» شيء عائم لا ضوابط له، وهي مجرد تلاعب يستهدف إعطاء ما سمياه بـ«الرؤية» وزنًا أعلى من الرأى الشخصى المبنى على ذوق أو وجدان أو نحو ذلك .

(٢٢) فى سبيل البعث، مرجع سابق، ص ٤٩ .

(٢٣) العقائدية فى الشرق الأوسط، مرجع سابق، ص ٢٤٣ـ٢٤٤ .

(٢٤) ميدل إست فورم، مج ٢٣، ع٢، ١٩٥٨م، حديث مع عفلق، ويقصد عفلق ـ هنا ـ جميع القيم سواء أكانت دينية أم ثقافية .

(٢٥) أى حب هذا الذى يتحدث عنه القائد المؤسِّس؟ أهو حب القتل والإبادة والمقابر الجماعية؟! فهو يحض الطلائع على القسوة ولكن بدافع الحب . ترى لو حلل أطباء نفسيون نفسية القائد المؤسس ماذا يجدون فيها؟ ولكن لا داعى للتحليل (فهو مرفوض عند عفلق) والعراق والتدمير والتنكيل الذى لحق به شاهد على أمراضه وعاهات أتباعه .

(٢٦) فى سبيل البعث، مرجع سابق، ص ١٢٩ .

(٢٧) المرجع السابق، ص ١١١ .

(٢٨) المرجع السابق، ص ١٤٠ .

(٢٩) الثورة العقائدية، مرجع سابق، ص ٣٥٣ـ٣٥٧.

(٣٠) فى سبيل البعث، مرجع سابق.

(٣١) أصل هذا التعبير مأخوذ من الحديث الوارد فى مسند أحمد ونصه : عن عطاء بن أبى رباح قال: حدثنى من سمع أم سلمة تذكر أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان فى بيتها فأتته فاطمة ببرمة فيها خزيرة فدخلت بها عليه، فقال لها : « **ادعى زوجك وابنيك** » قالت: فجاء علىٌّ والحسين والحسن فدخلوا عليه فجلسوا يأكلون من تلك الخزيرة وهو على منامة له على دكان تحته كساء له خيبرى، قالت: وأنا أصلى فى الحجرة فأنزل الله ـ عز وجل ـ هذه الآية ﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا** ﴾ [الأحزاب : ٣٣] قالت: فأخذ فضل الكساء فغشاهم به ثم أخرج يده فألوى بها إلى السماء ثم قال : «**اللهم هؤلاء أهل بيتى وخاصتى فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، اللهم**

هؤلاء أهل بيتى وخاصتى فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً». قالت: فأدخلت رأسى البيت فقلت: وأنا معكم يا رسول الله؟ قال: «إنك إلى خير، إنك إلى خير».

رواه أحمد عن أم سلمة فى باقى مسند الأنصار، رقم: ٢٥٣٠٠، ٢٥٣٣٩، ٢٥٥٢١.

(٣٢) صحيح مسلم، كتاب الزكاة رقم ١٠١٧، والعلم [١٥/ ١٠١٧].

(٣٣) راجع كتاب شيخنا: عبد الغنى عبد الخالق. حجية السنة. هيرندن: فيرچينيا، المعهد العالمى للفكر الإسلامى، ١٩٨٦م، ص ٥٩٨.

(٣٤) الحديث أخرجه مسلم فى كتاب الإمارة [٥١ ـ ٥٢ / ١٨٤٧].

(٣٥) أعد أخونا وولدنا الأستاذ الدكتور نصر عارف دراسة قيمة استقرأ فيها ما هو متوافر من مخطوطات ومطبوعات فى هذا المجال، وقد جاوزت الدراسة ثلاثمائة مصدر فى حين أن الكاتبين فى السياسة اعتادوا ألاَّ يرجعوا لأكثر من ثمانية عشر مرجعًا منها، وعمموا أحكامهم فى الفكر والنظريات السياسية والتاريخ السياسى الإسلامى بمقتضاها ووفقًا لما ورد فيها. لمزيد من التفاصيل راجع: نصر محمد عارف، فى مصادر التراث السياسى الإسلامى، هيرندن: فيرچينيا، المعهد العالمى للفكر الإسلامى، ١٩٩٤م.

(٣٦) الراغب الأصفهانى، مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داودى: دمشق دار القلم، ط ٢، ١٩٩٧م. مادة (أمّ).

(٣٧) أبو نعيم الأصفهانى، «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء»، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٧م. ٥/ ٣٨٠.

(٣٨) أبو الفتح الشهرستانى، «الملل والنحل»، تحقيق: عبد العزيز محمد الوكيل، بيروت: دار الفكر، د. ت، ص ٣١.

(٣٩) خلق القرآن: قضية أثارها المعتزلة فنفوا كون القرآن قديمًا خوفًا من وقوع المسلمين فيما وقع فيه النصارى من تأليه الكلمة، فعيسى «كلمة الله» فظنوا أن المسلمين قد يسلكون المسلك نفسه فيؤدى بهم إلى الشرك. وقد فرض المأمون والمعتصم على العلماء تبنى هذه المقولة، وعذب الإمام أحمد بن حنبل وغيره بسببها، ودامت هذه الفتنة ثمانية عشر عامًا ثم أبطل المتوكل القول بها.

(٤٠) محمد أبو زهرة، «تاريخ المذاهب الإسلامية»، القاهرة : دار الفكر العربى، د . ت، ١/ ١٨٠ـ١٩٤.

(٤١) محمد عبده، «رسالة التوحيد»، تحقيق: محمد عمارة»، القاهرة: دار الشروق، ط ١، ١٩٩٤، ص ٢٨.

(٤٢) أبو منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادى الإسفرائينى، «الفَرق بين الفرق»، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد: بيروت، المكتبة العصرية، ١٩٩٥م. ص ٣١٢ـ٣١٨.

(٤٣) أبو المظفر طاهر بن محمد الإسفرائينى، «التبصير فى الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين»، تحقيق: كمال يوسف الحوت، بيروت: عالم الكتب، ط ١، ١٩٨٣م. ص ١٨٥ـ١٨٧.

(٤٤) رواه أبو داود فى كتاب السنة، باب: شرح السنة، رقم ٤٥٩٧، وابن ماجه فى كتاب الفتن، باب: افتراق الأمم، رقم ٣٩٩٢.

(٤٥) الحديث أخرجه الترمذى فى كتاب الفتن، باب ما جاء فى لزوم الجماعة، رقم الحديث ٢١٦٥.

(٤٦) نعنى بـ «فتنة التفسير» الإصابات التى نزلت بالتفسير، وخاصة كتب التفسير بالمأثور وما حوته من روايات وإسرائيليات. ولا نحصر الإسرائيليات ـ هنا ـ بروايات التراث اليهودى وحسب، وإنما يدخل معه أيضًا المروى من تراث النصارى وفارس وسواهما. يقول ابن خلدون فى هذا الصدد: «قد جمع المتقدمون فى ذلك [يعنى التفسير بالمأثور] وأوعوا، إلا أن كتبهم ومنقولاتهم تشتمل على الغث والسمين، والمقبول والمردود. والسبب فى ذلك أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم، وإنما غلبت عليهم البداوة والأميّة، وإذا تشوقوا إلى معرفة شىء مما تتشوق إليه النفوس البشرية فى أسباب مكونات بدء الخليقة وأسرار الوجود فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم، ويستفيدونه منهم، وهم أهل التوراة من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى. وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم، ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب، ومعظمهم من «حمير» الذين أخذوا بدين اليهودية، فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم مما لا تعلق له

بالأحكام الشرعية التى يحتاطون لها، مثل أخبار بدء الخليقة، وما يرجع إلى الحدثان والملاحم، وأمثال ذلك. وهؤلاء مثل: كعب الأحبار، ووهب بن منبه، وعبد الله بن سلام، وأمثالهم. فامتلأت التفاسير من المنقولات عنهم، وفى أمثال هذه الأغراض أخبار موقوفة عليهم، وليست مما يرجع إلى الأحكام فيتحرى فيها الصحة التى يجب بها العمل. وتساهل المفسرون فى مثل ذلك، وملأوا الكتب بهذه المنقولات، وأصلها - كما قلنا - عن أهل التوراة الذين يسكنون البادية ولا تحقيق عندهم بمعرفة ما ينقلونه من ذلك، إلا أنهم بعُد صيتهم، وعظمت أقدارهم لما كانوا عليه من المقامات فى الدين والملة، فتلقت بالقبول يومئذ. . » ابن خلدون، المقدمة، ص ٤٩٠ وما بعدها.

(٤٧) اخترنا هذا التعبير فى إشارة إلى الحديث المروى عند أحمد والبغوى والطبرانى من طريق أبى كثير المحاربى قال: سمعت خرَشَة يقول: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: ستكون بعدى فتنة الحديث. ينظر: ابن حجر العسقلانى، الإصابة فى تمييز الصحابة، مصر: مطبعة السعادة، ط ١، ١٩١٠. ١/ ٤٢٣.

(٤٨) يراد بالتواتر المعنوى أن ينقل جماعة وقائع مختلفة تشترك كلها فى أمر معين، فيُحمل الاشتراك فى الاتفاق على الرواية باعتباره تواترًا معنويًا. وقد شاع القول بالتواتر المعنوى بين الفقهاء والأصوليين. والمعروف أن كثيرًا من الفقهاء والأصوليين يغلب عليهم إيراد الآيات والأحاديث من قبيل الشاهد أكثر مما هو من قبيل الدليل المنشئ للحكم، ولذلك غلب عليهم إيراد الشواهد على أحاديث قد لا تكون قد بلغت من درجات الصحة أقصاها، بل قد يكون فيها الضعيف والغريب والمرسل وما إلى ذلك. والناظر فى الفقه الخلافى (الفقه المقارن) يلحظ كيف كان بعض أصحاب المذاهب يفند أو يطعن أو يرفض الأحاديث الواردة لدى المذاهب الأخرى سواء بالطعن فى سندها أو متنها. ومن هنا ظهر وشاع تداول واستخدام تعبير «التواتر المعنوى» أو قالوا: «هذا الحديث يستغنى بشهرته عن طلب الإسناد له»، وفى هذا من الخلل المنهجى ما لا يخفى على مطلع.

(٤٩) المراد بهذا التعبير - أصلاً - هو ما روى من طريق الآحاد، وتلقت الأمة معناه بالقبول. وقد عرفه علماء الأصول بأنه «ما حكم بصحته المعصوم - كالأمة، فعُلم صدقه بالنظر»، وهذا التعريف يفترض حكم جميع المجتهدين المختصين بصحته، أو أن يكونوا بين

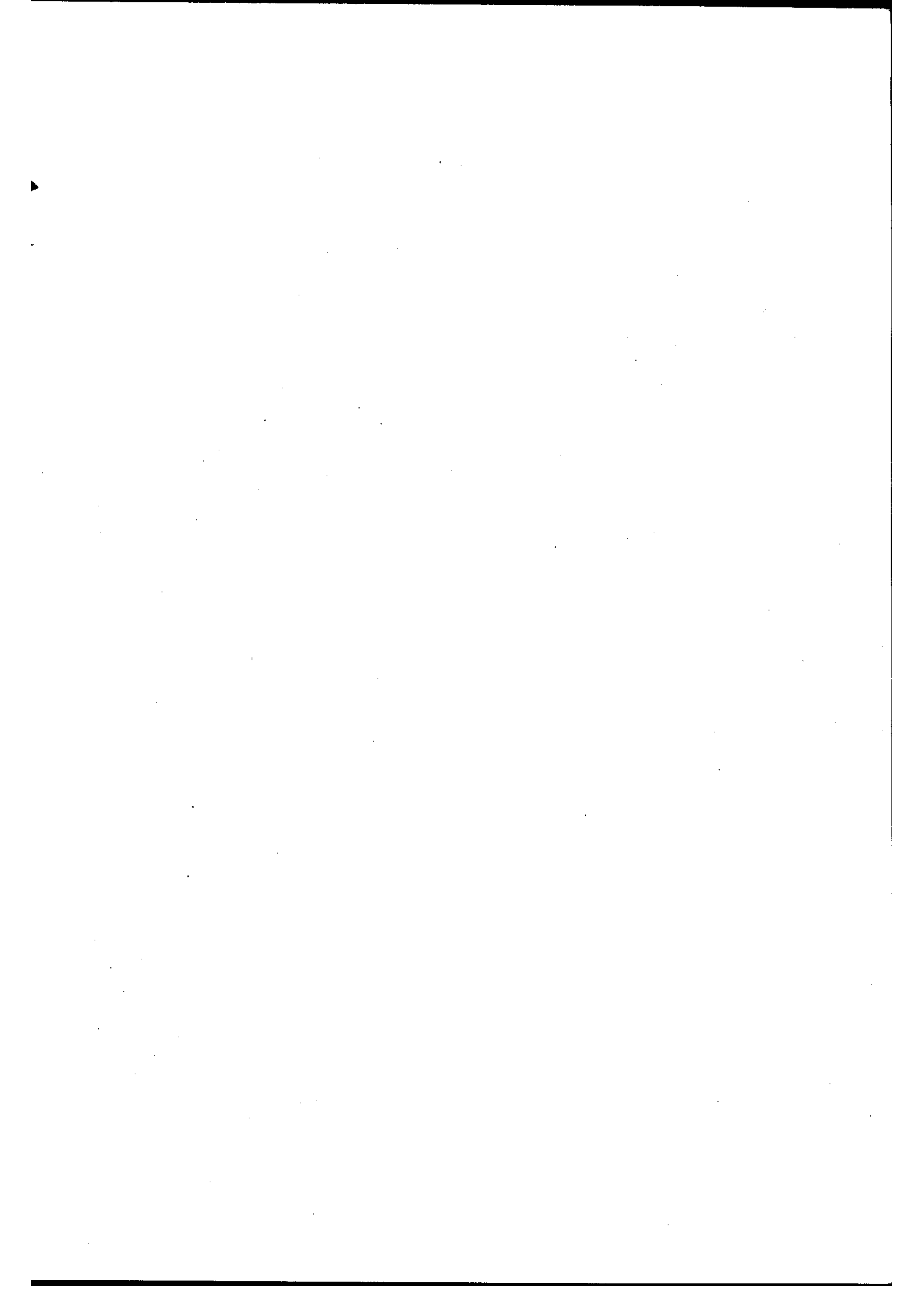
مصحح له وعامل بموجبه، وليس الأمر كذلك فى هذا الحديث. ويمكن إن يقال إن المتلقى بالقبول من هذا الحديث هو القدر المشترك من الروايات؛ وهو الإخبار بافتراقها، وتعامل الزيادات كروايات مستقلة، منها المقبول ومنها المردود، وبذلك تنحصر دلالة الحديث على الإخبار بافتراق الأمة لا غير. ينظر: محمد يحيى سالم عزّان. حديث افتراق الأمة تحت المجهر. صنعاء: مركز التراث والبحوث اليمنى، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م. ص ٩٢ وما بعدها.

(٥٠) ينظر فى ذلك مقدمة كتاب «الملل والنحل» للشهرستانى، و«الفصل فى الملل والنحل» لابن حزم.

(٥١) راجع: الشاطبى، الاعتصام، القاهرة، المكتبة التجارية، د. ت، (٢/ ١٩٠-١٩١).

(٥٢) راجع: محمد سالم عزان، مرجع سابق.

***



رقم الإيداع ٣٢٤٧/ ٢٠٠٥

الترقيم الدولى I.S.B.N - 977-09-1207-7